عصام الدين حفنى ناصف

«إذا كانت المدنية الحديثة تعنى أن يتمتع بثمارها بضعة مئات من الأغنياء والوارثين فتعسا لها وسحقا».
عصام الدين حفنى ناصف
(كتاب التجديد الاجتماعى)

يبدو غريبا أن تبدأ دراسة ما بفقرات من ملف التحقيق فى إحدى الجنايات، لكن بعض الناس لا يمكن دراسة تاريخ حياتهم بغير تقليب صفحات القضايا، ومحاضر البوليس وتقارير المباحث.

س: هل أنت ناشر كتاب التجديد الاجتماعى؟

ج : نعم، وقد طبعت منه ١٥٠٠ نسخة وبيع معظمها.

س: تشير فى كتابك إلى «أناس لا ينظرون إلى الفلاح إلا باعتباره ثورا يضعون فى عنقه نيرهم» فمن هم هؤلاء؟

ج: هم طائفة كبيرة من أصحاب الأطيان والمصانع.

س: تشير فى كتابك إلى «الأموال التى تصرف فى إسراف سخيف وتكفى لتحسين حالة الفلاح لحد ما» فماذا تقصد من ذلك؟

ج: أريد مثلا الأموال التى تنفق على الزينة فى أعياد جلالة الملك والتى لا يستفيد منها غير أصحاب محلات الكهرباء الأجانب وغير ذلك حاجات كثيرة جدا، فالأغنياء مثلا يشترون الماسات ويقيمون الأفراح ونحو ذلك، ومثال ذلك البرنس يوسف كمال عنده ٤٠ كلبا للصيد يذبح لها خرفانًا مخصوصة بينما الفلاحون فى أرضه لا يأكلون غير المش، وهو وغيره يحجزون على أملاك الفلاحين إذا خسرت الزراعة.

س: من الذى يأبى على الفلاح قسطه من القوت؟

ج: كل اللى شايفين حالته وسايبينه «يرن».

س: ماذا تقصد بعبارة «سحقا لها وتعسا»؟

ج: أقصد مدنيتنا الحالية.

س: ماذا تعنى بعبارة «لكل من يعمل على قدر ما يعمل»؟

ج: «الفلاح يشتغل طول السنة مفيش معنى يأكل المش وصاحب الأرض يبعثر الفلوس، بل يجب أن توزع الإيرادات على صاحب الأرض والفلاح بنسبة عادلة».

س: قلت فى كتابك «إن الفلاح يزرع فيجب أن يحصد، الفلاح هو المنتج فيجب أن يكون هو المتمتع» فماذا تقصد بهذه العبارة؟

ج: أقصد المعنى الحرفى..

س: ما الذى تقصد بالضبط؟

ج: أقصد أن الفلاح فى حالة سيئة وأنهم مش عايزين يعطوا له حقوقه.

س: من هم؟

ج: الملاك والأغنياء والحكومة...[1]

وبعد.. لم تكن الكلمات السابقة محاولة للتعرف على كتاب يدور بشأنه التحقيق ويتهم صاحبه بالتطرف، فما أكثر هذه الكتب، لكنها محاولة للتعرف على الرجل.. الرجل الذى أصدر الكتاب وواجه المحقق بشجاعة نادرة ووضوح ثورى..

أما الرجل.. فهو عصام الدين حفنى ناصف

والكتاب.. «التجديد الاجتماعى»

والمحقق.. ممثل واحدة من أكثر الحكومات التى شهدها تاريخ مصر الحديث رجعية وتعسفا. حكومة إسماعيل صدقى عام ١٩٣٠.

والحقيقة أننى قد حاولت أكثر من مرة أن أبدأ هذه الدراسة بكلمات قليلة أبلور فيها شخصية عصام الدين ناصف ولم أجد غير كلماته وهو حبيس الطغيان يدينه ويدين النظام الذى أقامه والطبقة التى يخدمها بشجاعة تستحق التقدير، كلمات تعبر عن أصالة الإنسان وهو فى مواجهة الخطر.

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى سجن فيها عصام، فلقد كانت الفترة الأولى من كفاحه، سلسلة من التصادمات مع الطغيان، فالتحقيق فالمحاكمة، لكن صوته كان فى كل

مرة يعلو فوق صوت قضاته، يدينهم قبل أن يدينوه، وكثيرا ما كان ينتزع براءته لا بالتراجع وإنما بمزيد من الهجوم الذى يضع النظام كله فى قفص الاتهام.

والقصة طويلة جدا..

فلقد دخل عصام المعركة مبكرا، شابا فى العشرين من عمره تفجرت حوله ثورة ١٩١٩ فشارك فيها بكل ثقله..

ومن ١٩١٩ عندما دخل السجن لأول مرة وحتى ١٩٦٩ عندما كف قلبه الشجاع عن الخفقان تمتد مرحلة طويلة تحاول هذه الدراسة تغطيتها.

وقد يكون الأمر سهلا إذا حاولنا أن نؤرخ لشخص عادى، لكن عصام تمتزج حياته بحياة شعبة وقضايا أمته، ولا يمكن للحديث عنه أن يكون صادقا ولا أن يكون مجديا إذا لم نتحدث عن السلطة والنظام وثورة ١٩١٩ وحزب الوفد وسعد زغلول والحزب الوطنى ونقابات العمال والحزب الاشتراكى، وعشرات المحاولات المخلصة لإقامة حزب للعمال والفلاحين.. واتحاد أنصار السلام وعديد من المجلات.. روح العصر.. التطور.. شبرا.. الشعاع.. والمصرية.

من هنا تبدو صعوبة الأمر، فنحن سنؤرخ لرجل غير عادى، لكننا مع ذلك سنحاول مستخدمين حصيلة من المواد.. كتاباته وهى كثيرة جدا، صحف هذه الفترة، أرشيفه الشخصى الذى ظل يجمعه بدأب وصبر طوال نصف قرن ثم سلمه لى وكأنه يودع لدى كنزاً ثمينا. وهناك أيضا محاضر البوليس وتقارير المباحث وملفات القضايا.. وهكذا سنحاول.

من هو..؟

والإجابة ليست صعبة، فهو ابن حفنى ناصف، واحد من رواد الوطنية الصحيحة الذين شاركوا فى ثورة عرابى، وبعد الاحتلال رفضوا الانحناء للمحتلين.

ويحاول طه حسين أن يقدم حفنى ناصف فيقول إنه «عرف احتفار قناة السويس فى آخر الصبا. وعرف الثورة العرابية وشارك فيها حين استكمل شبابه، ثم شهد الاحتلال البريطانى وشقى به فيمن شقوا من مواطنين. ثم شهد نهوض الصفوة المصرية لمقاومة هذا الاحتلال فأخذ معها فيما أخذت فيه. ثم شهد اليقظة العقلية لمصر، فكان من دعاتها والجادين فى إذكاء نارها من أمثال محمد عبده، ومصطفى كامل، وقاسم أمين، وسعد زغلول»(٢)

ولم يكن حفنى ناصف مجرد شاعر ومناضل وطنى، ففى بعض أشعاره يمكن أن نلمح آفاقا للتمرد الاجتماعى ورفضا للظلم والاستغلال.

وفى قصيدة كتبها وهو طالب بالأزهر يحيى فيها برلمان الثورة العرابية قال:[٣]

لا أرجع الله أياما مررن بنا
أيام كنا نقاسى الظلم والهونا
كنا نساق بسوط الظلم تندبن
أحبابنا وتنادينا ذرارينا
أيام كان ولاة الجور فى سعة
وكان صاحبنا الفلاح مسكينا
وكم أتينا لهم نشكو ظلامتنا
وما وجدنا أميرا قط يشكينا

وعصام شقيق باحثة البادية ملك حفنى ناصف، وشقيق مجد الدين الذى لعب دورا مهما فى تاريخ الحركة الوطنية المصرية.

هو إذًا نبت مناخ وطنى أصيل، ولعل ثوريته المتأججة وحماسه الدافق هما ثمرة الامتزاج بين الوطنية المصرية الأصيلة والفكر الاشتراكى.

... لكن ثمة صورة أخرى، صورة ترسمها صحيفة السوابق، وتقارير المباحث وملفات القضايا..

* «عصام الدين حفنى ناصف حكم عليه حضوريا فى ١٩١٩/١٢/١٤ بحبسه ثمانية أشهر بسيطة وإعدام المنشورات لاشتراكه فى طبع منشورات تحرض الناس على كراهية الحكومة وبغضها والازدراء بها فى أواسط عام ١٩١٩»[٤]

* وتقرير كتبه حكمدار بوليس مصر يقول:

«.. فى أغسطس ١٩٢١ كان عصام الدين حفنى ناصف يعمل مع الوفديين وكان معروفا عنه إذ ذاك أنه من أكبر أنصارهم وألف جمعية الدفاع عن المسجونين السياسيين التى كان من أفرادها شفيق منصور الذى أعدم فى قضية المغفور له السير لى ستاك».

وكان فى ذلك الحين يشيع أن له أصدقاء كثيرين من الروس والألمان فى الحزب البلشفيكى، ويرى أن أحسن وسيلة لطرد الإنجليز من مصر هى قلب مصر إلى حكومة بلشفية.

وتبلغ للبوليس عنه على أثر عودته من برلين فى يوليو ١٩٢١ أنه جاء مزودا من جمعية

اتحاد أمم الشرق بخطة لنشر المبادئ البلشفية. وعقد اجتماعات فى منزل محمد توفيق مكرم بك لتأليف لجنة للنشر والطبع والترجمة لبث دعوة البلشفية تحت ستار الجامعة الإسلامية.

وفى ١٩٢٢ انشق عن المغفور له سعد باشا زغلول وأنصاره وانضم إلى الحزب الوطنى، وفى مارس ١٩٢٤ تبلغ عنه أنه نشر الدعاية الشيوعية فى خطبة ألقاها فى تكريم المسجونين السياسيين.

«وعصام الدين ناصف هذا شاب متطرف إلى درجة الجنون فى سياسته وآراءه وكل أعماله، ومعروف عنه أنه من الأشخاص الخطرين» (٥).

وحكم صادر من محكمة جنايات مصر فى القضية نمرة ٤٩ الموسكى ١٩٢٤ المتهم فيها عصام الدين حفنى ناصف بأنه:

أولا: فى أثناء شهر يناير ١٩٢٣ ببرلين نشر فى جريدة آزاد شرق (حرية الشرق) التى تصدر فى برلين مقالا ألفه تحت عنوان (عودة الوفد إلى الدسائس.. الماضى المؤلم) وذلك بالعدد الصادر فى ٢٠ يناير ١٩٢٣، وقد تضمن المقال عيبا فى حق صاحب الجلالة ملك مصر بأن قال إنه حصل خلاف بين جلالته وبين معالى سعد زغلول سول للسراى أن تستنجد بدار الحماية حتى قبضت على معاليه ونفته فى مالطة.

ثانيا: بأنه من ثلاثة شهور سابقة على يوم ٢٢ يوليو ١٩٢٤ بالطريق العام وهو شارع البوستة بدائرة قسم الموسكى حسن أمرا من الأمور التى تعد جناية حسب القانون، بأن حبذ جناية قتل المرحوم بطرس غالى باشا رئيس الوزارة المصرية الأسبق التى وقعت يوم ٢٠ فبراير ١٩١٠ وذلك علنا بأن أشهر وحمل فى عروة سترته فى ذلك الطريق العام صورة إبراهيم الوردانى الذى ارتكب الجناية المذكورة.(٦)

والقائمة طويلة جدا، لكننا سنكتفى بهذا القدر، فما زالت أمامنا رحلة طويلة، فعصام الدين ليس مجرد ملفات فى محاكم ولا تقارير بوليس، بل هو ذلك الكفاح الفكرى والسياسى الذى أدى به إلى مواجهة المحاكم والبوليس.. فلنحاول أن نبحث عن أبعاد جديدة للصورة.

وفدى ثم.. حزب وطنى

ومع التيار الجارف للوطنية المصرية التى تدفقت قواها ضمن حزب الوفد فى ثورة

١٩١٩، سار عصام الدين ليواكب الثورة منذ أيامها الأولى، وليعانى سجنا وتشريدا لأنه طبع ووزع منشورات تحض على الثورة والازدراء بالحكومة.

لكن الأمور تتغير سريعا، ويسافر عصام إلى برلين ليكمل تعليمه ويشارك هو وأخوه مجد الدين فى تنظيم الطلبة المصريين بالخارج، وفى تعبئتهم لخدمة القضية الوطنية.

وكان مجد الدين سكرتيرا لجمعية الطلبة المصريين فى باريس، وعصام الدين سكرتير الجمعية فى برلين، وهناك أمكن الاحتكاك بقوى اليسار الأوروبى، فى فرنسا بحزب حقوق الإنسان وبالحزب الاشتراكى وبزعيمه «كاشان»، وفى ألمانيا بالحزب الاشتراكى الألمانى.

ولم يكن هذا موقفا فرديا، فالاتجاه العام للجمعية المصرية فى باريس وفى برلين وفى روما كان قد اقتنع تماما بأن اليسار الأوروبى هو السند الوحيد لحركة التحرر لوطنى المصرية، وذلك بعد أن انكشف أمام أعينهم وبصورة سافرة أكذوبة مبادئ ويلسون ومؤتمر الصلح (٧).

وكان طبيعيا أن يبدأ التباعد بين الطلبة الذين يتجهون يسارا وبين الزعيم الذى يتمسك باعتداله.

وهكذا بدأ الصدام بين سعد زغلول وجمعيات الطلبة فى أوروبا.

ويروى محمود أبو الفتح القصة..

«كانت الجمعية تناقش فى الإشاعات التى حامت حول سعد زغلول باشا، خاصة وقد رأى البعض أنه لم يكذب الخبر (كذبه فيما بعد، وهو الخبر المتعلق بقبول سعد تقرير ملنر).. ثم رأى أنه لم يبادر إلى الاحتجاج على بعض المسائل فى الحال بل تأخر فى ذلك أياما.

فعمد البعض إلى إرسال خطابات إليه منهم شخصيا فيها عبارات شديدة، وأرسلوا إليه خطابات كان ترد إليهم من بعض المصريين فى سويسرا وفرنسا وإنجلترا ومصر.

وطرحت مسألة الإشاعات على بساط البحث فى الجمعية فتقرر فى النهاية بإجماع الآراء - ما عدا اثنين - إرسال خطاب لسعد باشا. وقيل فيه: إننا قرأنا فى الصحف إشاعات مخجلة فيها أن سعادة زغلول باشا سيقبل بعض منح.. ولما كان لم يظهر أى تكذيب فى الصحف رغم انتشار الخبر فنرجوا أن تكذبه أو تسمح لنا بتكذيبه وسيذهب عضو بعد ٤٨ ساعة لاستلام الرد»(٨)

وهكذا تفجر الصراع عنيفا بين الطلاب وبين زعيم الثورة.

والذى يهمنا فى هذا الصدد هو الدور الذى لعبه عصام وشقيقه مجد الدين فى تزعم هذه الحملة، فقد عمدا إلى الدعوة لمؤتمر عام لجمعيات الطلبة المصريين فى أوروبا ليواجهوا محاولات التهادن وعلامات التردد التى بدأت تسود تصرفات قادة الوفد فى باريس.

وعندما منع الوفد عنهم مساعداته المادية التى كانوا يستخدمونها فى إصدار نشرات إعلامية تشرح أبعاد القضية الوطنية دعوا المواطنين فى مصر إلى التبرع لهم، وكانت الاستجابة للنداء واسعة، الأمر الذى أزعج سعد زغلول فى باريس.. كذلك أزعجته الدعوة إلى تأسيس فرع لجمعية الطلبة داخل مصر.

وثمة وثيقة مهمة هى واحدة من الرسائل السرية التى أرسلها على ماهر من باريس - وكان فى ذلك الوقت سكرتيرا خاصا لسعد زغلول - إلى عبد الرحمن فهمى سكرتير اللجنة المركزية لحزب الوفد.. وقد جاء فيها:

«يظهر أن مسألة الجمعية المصرية قد اتسعت أخيرا، لعطف البلاد عليهم ومساعدتهم بالأموال وإيجاد لجنة لهم فى مصر. وظاهر أن مثل هذه التصرفات لا تتفق مع وحدة العمل ووحدة الوجهة فإنهم مهما كان شعورهم عظيما، فإنهم يقعون فى الأغلاط كثيرا ولا يؤمن عليهم من غير إشراف الوفد ولذلك يكون الأولى أن يترك الأمر للوفد فهو يقدم لهم النقود ويشرف على أعمالهم بوجه الإجمال ويرشدهم إلى الدائرة التى يجب أن يوجهوا فيها مجهوداتهم.. وإذا أمكن إلغاء لجنتهم بمصر يكون أكمل وأوفى.. وإنى منذ وصولى كان همى ضم الجمعية للوفد حتى يعامل أعضاءها كأبنائه ويساعدهم بكل ما يلزمهم، إلا أنهم كانوا فى غاية العناد، وأشدهم عنادا هو مجد الدين أفندى ناصف، فلذلك أرى أنه إذا عاد ليخدم القضية فى مصر يكون أصلح للوفاق هنا» (٩)

ويقول عصام الدين: «حضرت مؤتمر الطلبة المصريين الذين يدرسون فى أوروبا، وكان ذلك فى ١٩٢١، وفى الاجتماع هاجمنا سعد زغلول وقلت له أنا أسحب الثقة منك فثار سعد وقال أنا وكيل الأمة ولست وكيل جمعية الطلبة»(١٠)، وعندما يسأله أحد وكلاء النيابة الذين حققوا معه ألم تشتغل بالسياسة مدة وجودك فى ألمانيا؟ يجيب: «كنا عاملين لجنة حزب وطنى وعملنا منشورات باللغة العربية ضد سعد باشا باعتبارنا لجنة حزب وطنى».(١١)

وهكذا ينتقل عصام الدين من الوطنية إلى الوطنية المتطرفة التى ترفض الاعتدال والتهادن وتتمرد على زعامة سعد زغلول وتحاول أن تدفع بالثورة إلى مسار أكثر أصالة.. ولم يكن هذا هو الانتقال الوحيد.. فلقد واصل عصام المسير.

من الوطنية المتطرفة.. إلى الاشتراكية

وأود أن أؤكد ابتداءً أن اتصال الطلبة المصريين باليسار الأوروبى لم يكن يعنى أنهم قد انضموا إلى معسكر اليسار. ففارق كبير بين التأثر والانتماء. والحقيقة أن جناحا لا بأس به من الدارسين المصريين فى الخارج قد أطل على الفكر اليسارى، وتأثر به البعض تأثرا عابرا تحول نتيجة للتكوين الطبقى ولطبيعة المكونات الفكرية للمجتمع المصرى إلى اتجاهات ليبرالية. والبعض اكتفى بالحماس فى الخارج، ثم يفتر حماسه عندما يعود ويكتفى بمشاركة البرجوازية المصرية وكبار ملاكها فى اقتسام ثمار ثورة ١٩١٩.

لكن البعض يظل يطور نفسه مع الأحداث يسوقه إخلاصه الوطنى ورفضه للتهادن مع الاحتلال إلى الالتقاء مع القوى المعادية للاستعمار فى أوروبا.. وهى بالتحديد قوى اليسار. ثم يسوقه سخطه على أسلوب التهادن مع الاحتلال إلى التناقض مع المتهادنين و لهجوم عليهم.

ومن خلال هذا وذاك يجد نفسه وهو يقترب رويدا رويدا من معسكر اليسار لينتمى إليه فى النهاية.

وثمة أمثلة كثيرة لشبان وطنيين دفعهم إحساسهم الوطنى العارم برفض التهادن مع المحتل إلى التمرد على الوفد، والانضمام إلى الحزب الوطنى، رافعين شعاره «لا مفاوضة إلا بعد الجلاء» لكن الحزب الوطنى كان يعانى من الضعف والتفسخ، أى أنه كان يعانى من نفس أمراض الطبقة التى يمثلها.. الحماس مع نفاد الصبر، والتشدد مع عدم الثقة فى حركة الجماهير.

ورويدا رويدا يكتشف بعض هؤلاء الوطنيين المتحمسين الأمراض الحقيقية، التى يعانى منها مجتمعهم، ورويدا رويدا يتجهون يسارا.

ولنتأمل بعض الأمثلة...

دكتور عبد الفتاح القاضى زميل عصام الدين ورفيق كفاحه يقول:

«أنا كنت وطنياً متطرفاً وكل همى أن أطعن فى الإنجليز، كنت وطنياً أؤمن بمصطفى

كامل ومحمد فريد ولم أكن أحب الوفد لأنه يسعى للمفاوضة، والمفاوضة تؤدى إلى التسليم. ومع مضى الوقت ابتدأت الأفكار تختمر فى عقلى واقتربت من الاشتراكية أكثر فأكثر عن طريق الأدب. وعن طريق القصص الاشتراكية ابتدأت أقتنع بالاشتراكية، وبعد ذلك بدأت الاطلاع على النظرية الاشتراكية، لقد أصبحت اشتراكيا فكرا.. لكن لم يكن لى نشاط.. وعندما رجعت إلى برلين فى ١٩٢٣ لأكمل دراستى اتهمتنى القنصلية المصرية بأننى لى علاقات متطرفة مع ذوى المبادئ الهدامة، ولم يكن هذا صحيحا فقد كنت لا أزال عضوا بالحزب الوطنى، إلى أن عدت إلى مصر وعملت كطبيب أطفال وأحسست بحقيقة الفقر وبشاعته كنت أقول للأم: اشترى دواء لطفلك أو غذاء. وأشعر أنها لا تملك قرشا.

وهكذا اقتنعت أنه لا فائدة من الطب ولا فائدة من أى جهد أبذله إلا إذا تغير المجتمع، وأن الواجب الأساسى لأى إنسان هو العمل لبناء الاشتراكية».(١٢)

وفى نفس المسيرة تقريبا سار عصام الدين.

والشىء الغريب أننا نشاهد عصام - وهو وطنى متطرف - فى عام ١٩٢١ يعارض تأسيس حزب اشتراكى قائلا: «إن بلدا كمصر تقف دائما موقف المصارعة لعدوها السياسى يجب أن تستجمع كل قواها لدفعه عنها وبعد ذلك تتفرغ لبحث النظم الاجتماعية، أما أنها تشغل مجهودها بمسائل اجتماعية ثانوية لا يمكن أن ينفذ منها إلا ما لم يكن فيه معاكسة للاحتلال فتضييع لقوة الأمة».(١٣)

ثم إذا به وبعد أن نضجت وطنيته يتقدم الصفوف ليدافع عن الاشتراكية.

لقد سئل عصام فى التحقيق أمام النيابة.. لماذا تركت الحزب الوطنى؟ وأجاب بكلمة واحدة: «لأنهم لخبطوا»، إنها كلمة بسيطة لكنها تجمع فى أطرافها كل المعانى التى قد تجيش فى نفس شاب ثورى وهو يرى قيادته تتراجع ثم تتهاوى.

وإذا كان الدكتور عبد الفتاح القاضى قد بدأ عمله بالاشتراكية عن طريق الأدب حيث قدم لقراء العربية ولأول مرة دراسة علمية ممتازة عن تولستوى تتضمن تحليلا لمنهجه الاجتماعى ولموقفه الفكرى ودراسة لعديد من كتاباته(١٤)، فإن عصام الدين قد بدأ من طريق آخر. فأصدر كتاب «النشوء والارتقاء».

ويبدو أن فكرة النشوء والارتقاء والدفاع عنها وتقديمها للقارئ المصرى كانت مفتاحا للتحول نحو الاشتراكية عند الكثيرين، وهى تعبير عن إيمان هذا الاتجاه (شبلى شميل -

سلامة موسى - إسماعيل مظهر.. ثم عصام الدين ناصف) بأن الإيمان بالعلم و لعقل هو السبيل الوحيد الممكن لهزيمة الرجعية وانتصار الاشتراكية.

وعصام الدين لم يهمل الأدب، فقد ترجم فى ١٩٢٦ قصة «النور يضىء فى الظلام» لتولستوى ثم «الزوج الإبدى» لديستويفسكى، لكنه سرعان ما يتجه مباشرة إلى الكتابة عن الاشتراكية، وفجأة تنهال كتاباته فى سرعة غريبة وكأنها سيل يتدفق بغير توقف.

والحقيقة أن أية محاولة لاستعراض فكر عصام الدين هى محاولة صعبة فى حدود دراسة كهذه، فقد أصدر ٢٣ كتابا، وعددا من المجلات ومئات المقالات متناثرة فى عشرات الصحف وعبر سنوات طويلة.

لكننا مع ذلك سنحاول أن نقدم نماذج من فكره لعلها توضح لنا صورة عصام الدين المفكر.. لكننا سنحاول قبل ذلك أن نتحدث عن المكونات الفكرية لآراء عصام الدين عن الاشتراكية.

المكونات الفكرية لآرائه

لقد تأثر عصام الدين كثيرا بالفكر اليسارى الألمانى، فكل ما ترجمه من كتب ومقالات عن الاشتراكية مترجم أساسا عن الألمانية ولمفكرين ألمان «كمفماير»، و«كارل ديل» و«د. لودفيج كسل» وغيرهم.

وعصام لا يخفى هذا، فهو يقول ردا على سؤال عن علاقاته بالحزب الشيوعى الألمانى: «كنا نتعلم منهم ونتابع أعمالهم لكن لم تكن هناك علاقة مباشرة بالحزب. والحقيقية أننى لم أدرك أهمية النضال العملى من أجل الاشتراكية إلا بعد عودتى من ألمانيا. لكن الذى لا شك فيه أننا تأثرنا كثيرا بهذا الحزب وبأفكاره».[١٥]

وقد تأثر عصام الدين بالمدرسة الألمانية اليسارية بشكل عام وبالاشتراكية الديمقراطية وبالشيوعية وحتى بالاتجاهات اليسارية الأخرى.

فهو يدافع فى عديد من مقالاته عن الاتحاد السوفيتى وعن تطبيقه للاشتراكية، لكنه أيضا يترجم بعض كتابات تروتسكى.

ففى أحد محاضر تفتيش منزله ترد أسماء عشرات من الكتب الماركسية والكتابات عن تأييد الاتحاد السوفيتى ولكن يوجد أيضا «كتاب باللغة الألمانية سألنا عصام الدين أفندى عن موضوعه فقال بأن ترجمته الثورة الدائمة تأليف تروتسكى».

وهو لا يكتفى بالقراءة لتروتسكى لكنه يترجم له أيضا، ففى محضر التفتيش السابق

يلاحظ أيضا وجود مسودات مترجمة تحت عنوان «الحالة الحقيقية فى روسيا» بقلم تروتسكى، قال إنها ترجمت عن كتاب وجدناه بالدولاب كتب بالألمانية وعليه اسم ليون تروتسكى(١٦).

ثم هو ينشر فى ١٩٣١ مقالا يلخص فيه كتابا أصدره مؤلف ألمانى هو د. تيودور زاييرت اسمه «روسيا الحمراء» يقول فيه: إن تروتسكى والمعارضة التى معه عرضت على ستالين خضوعا معقولا ولكن ستالين أبى إلا خضوعا مطلقا..

ويقول: «لقد توطدت سلطة ستالين فى أواخر ١٩٣٠ ولم يبق غير الرجال الذين لا شخصية لهم مثل كالينين»(١٧).

لكنه لا يتخذ موقفا معاديا للتجربة السوفيتية فهو يمتدحها ويؤكد على جوانبها الإيجابية وفى مقال طويل بعنوان «روسيا» يتحدث عن تجربة توحيد القوميات على أساس من المساواة.. وعلى أساس «الاتحاد الاختيارى».

وهو يمتدح تجربة مجلس السوفيتيات ويقول: «إنه السلطة العليا للتشريع والإدارة معا، على خلاف برلمانات الدول البرجوازية..».

وهو يفرق بين البلاشفة والاشتراكية الديمقراطية قائلا: «إن البلاشفة صمموا على إلغاء طبقة الأغنياء كلية ومهاجمة الإمبرياليزم الخارجى، ومن ذلك نرى أن الأمر لم يقتصر على تغيير رجال الحكم مع بقاء الأمور الاقتصادية والسياسية على ما هى عليه، كما حدث عند تولى وزارة شيدمان فى ألمانيا وماكدونالد فى إنجلترا»(١٨)

وأخيرا حسم عصام الأمر بكتابه «موسكو - برلين - لندن» حيث خصص صفحات عديدة من كتابه لتمجيد الاتحاد السوفيتى ولتمجيد الدور السوفيتى فى هزيمة الفاشية.

ويتضح فى كثير من كتاباته أنه قد اطلع على قدر لا بأس به من كتابات ماركس ولينين وتأثر بها غاية التأثر. وهو لا يدع فرصة تمر إلا ويمتدحهما فيها مديحا لا حدود له.

وهو يدرك أيضا حقيقة معنى اللينينية كتطوير لأفكار ماركس. فيقول: «عاش ماركس فى عصر كانت الاستعمارية فيه فى طور الجنين ولم يكن يرى الثورة المسلحة ضرورة لا مناص منها. أما الآن فقد عظمت - تناقضات الرأسمالية - وليس مذهب لينين مجرد تطبيق للتعاليم الماركسية على روسيا، بل هو مذهب عالمى جديد يلائم بين الماركسية وظروف الإمبريالية الأخيرة»(١٩).

ولقد درس عصام الدين دراسة تفصيلية تاريخ الثورة السوفيتية وكثيرا من كتابات لينين حول الخلافات بين البلشفيك والمنشفيك. وكتب فى ذلك مقالات غاية فى الإمتاع والإسهاب بعنوان «تاريخ الحرب الأهلية فى روسيا».

وهو فى هذا المقال يمتدح لينين ويقدم عرضا لبعض كتبه ويمتدح الدولية الثالثة ويتحدث عن انضمام كثير من القوى إليها، ثم هو فى النهاية يردد كلمات لينين الحاسمة: «لقد ماتت الدولية الثانية، هزمتها سياستها الانتهازية».[٢٠]

لكن هل تخلص عصام الدين من رواسب فكرة الدولية الثانية؟ لست أعتقد ذلك.. لقد صحح كثيرا من أفكاره فى مسار نضاله الطويل لكن ثمة رواسب بقيت.. أهمها موقفه من فكرة «قيادة الطبقة العاملة للثورة»، فقد كان عصام الدين يرى أن المثقفين هم أقدر العناصر على إيقاظ الجماهير وتحريكها.

وفى أحد لقاءاتى معه سألته: لماذا اختلفت مع الدكتور القاضى؟ وأجاب: «لأسباب كثيرة منها أننى لم أكن أثق فى الطبقة العاملة المصرية، وكنت أطلب الاتجاه إلى المثقفين».[٢١]

لكن ذلك لا يعنى أنه لم يوجه نضاله إلى الطبقات الكادحة لكنه كان - بعقلية البرجوازى الصغير - لا يتصور أن ثمة عاملا يستطيع أن يكون قائدا له.

غير أنه كان يؤمن بالطبقة العاملة وبدورها الكفاحى وبضرورة تعبئتها وحشد طاقاتها من أجل الثورة..

وهو يهدى أحد كتبه «إلى كل عامل وفلاح يرفض هذا المركز الوضيع الذى تريده أنظمة الظلم والعسف.. إلى كل متنور يكرس وقته وجهوده للقضاء على طبقة الخليعين المتهتكين غير المنتجين الذين يتطفلون على جهود الطبقة العاملة».

«إلى كل من يحارب الظلم المحيق فى أية صورة من صوره»[٢٢]

ولسوف تشهد صفحات تالية كيف كرس عصام الدين كثيرا من سنوات عمره للعمل وسط جماهير العمال ومن أجل تنظيمهم والدفاع عن حقوقهم.

كذلك تأثر عصام الدين كثيرا بآراء شبلى شميل حول أهمية العلم وباهتمامه بنظرية النشوء والارتقاء وتصوره أن الدعوة إليها كفيلة بإحداث تطور فى فكر المجتمع يؤدى بذاته إلى الاقتراب من الثورة.

بل يورد على غلاف أحد كتبه عبارة شميل الشهيرة «كلمة حق وصيحة فى واد.. إن ذهبت اليوم مع الريح فستذهب غدا بالأوتاد..».

والآن وبعد هذه المحاولة هل نستطيع أن نقدم بعض أفكار عصام الدين..؟. فلنحاول.

التجديد الاجتماعى

وهى عبارة استخدمها عصام الدين كثيرا وجعلها عنوانا لاثنين من أشهر كتبه، وكان يعنى بها المزج بين المعركة الوطنية ضد المحتل والمعركة الطبقية ضد أعوان المحتل.

وتحت هذا العنوان كان عصام الدين يهاجم الاحتلال والإقطاع والبرجوازية والسراى معا مطالبا بتجديد المجتمع، أى بمجتمع جديد.

وقد خاض عصام الدين المعركة بشجاعة تستحق الإعجاب. ووزع هجماته على الجميع دون استثناء.

وقد رأينا كيف تحدث بجرأة أمام المحقق مهاجما الزينات التى ملأت الشوارع احتفالا بأعياد الملك. بل لقد كتب مقالا مليئا بالسخرية يتهكم فيه على الملك فؤاد وعلى حرف «الفاء» الذى كان بداية لاسمه ولأسماء جميع أولاده فأصبح بذلك محطا لاحترام الكثيرين الذى كتبوا عن هذا الحرف كرمز للأسرة المالكة. أما عصام فقد كتب متهكما: «حرف الفاء ما أدراك ما حرف الفاء.. هو ذلك الحرف الشريف الذى ما ورد فى مقدمة كلمة من الكلمات إلا وكانت الكلمة اسما لشىء مهاب محبوب.. ويمكننا أن نتبين أهمية حرف الفاء إذا وقع فى الابتداء من أن الفيل ملك الحيوانات وأن الفستق ملك الياميش وأن الفستان ملك الملابس والفل ملك الزهور.. والفت ملك الطعام»[٢٣]

وهو يشن حملة عنيفة ضد الاحتلال وسياسته فى فرض التبعية الاقتصادية على مصر، ويقول: «كان المستعمرون يقيمون العراقيل التى لا تحصى فى سبيل منع القطن المصرى من دخول روسيا – إلا عن طريق ليفربول – وذلك باسم البعبع الشيوعى».

ويهاجم الشركات الأجنبية وتحكمها فى المصالح القومية ويكتب مقالا يهاجم فيه شركات التأمين الأجنبية التى تستغل المؤمنين لديها مستفيدة من هبوط سعر العملة الورقية المستمر.[٢٤] وهو يوضح سياسة الاحتكارات ويكتب دراسة مستفيضة فى مجلة «الإخاء الوطنى» العراقية عن استنزاف هذه الاحتكارات لثروات العالم وتهديدها لصالح البشرية كلها بالتسبب فى الحروب المحلية والعالمية بحثا عن الأسواق والسيطرة المالية.

ونشر فى هذا الموضوع مقالين ممتازين ترجمهما عن الكاتب الأمريكى «لودويل دنى» أحدهما بعنوان «أمريكا تسحق إنجلترا»[٢٥] والآخر «الحرب القادمة بين انكلترا وأمريكا».[٢٦]

وهو لا يكتفى بهذا الهجوم لكنه يدين الملكية الفردية بشكل عام فهو ينتهز فرصة الحديث عن «عيد الثورة الفرنسية»[٢٧] ليورد كلمات قالها روسو: «إن أول من وضع سياجا حول قطعة من الأرض وقال هذا ملكى، ووجد أناسا سذجا يصدقونه، هو المؤسس الحقيقى للمجتمع البرجوازى، وكم من شقاء وهول كان يوفرها على جنسنا من يهدم هذه الأسوار ويهيب برفاقه: احذروا الإصاخة إلى هذا المخادع.. أما إنكم لتضيعون ضياعا إذا نسيتم ان الثمار للجميع أما الأرض فليست لأحد..».

ثم يواصل عصام فى تحليل علمى دقيق لطبيعة الثورة الفرنسية فيقول: «لقد كان لروسو الدور التوجيهى فى الثورة، أما من حيث مثله العليا السياسية أو آرائه الاجتماعية فلم يعمل بها، ذلك أن العالم لا يقفز، فقد كان من اللازم أن تتحرر الطبقة البرجوازية من قيود الإقطاع قبل أن يفكر الناس جديا فى تحرير الطبقة التالية لها»، بل هو يقدم شرحا لتطور موقف البرجوازية ذاتها، «ففى زمن الثورة الفرنسية والتمهيد لها كان التفكير البرجوازى الاجتماعى والتاريخى يتطور فيها نحو الكمال، وكانوا يفهمون قوانين التطور الاجتماعى كالاعتراف بالعلاقات بين النظرية والعمل (بيكون) والنظر إلى حوادث العالم من وجهه النظر المادية (باكون وهوبز وتولند فى إنجلترا، وماديو القرن الثامن عشر فى فرنسا) ونظرية الطبقات (الفيزوقراطيون وسان سيمون) ونضال الطبقات (برناف ومؤرخو عهد الإصلاح الفرنسيون) ونظرية القيمة (المدرسة الإنجليزية الكلاسيكية فى الاقتصاد السياسى) كل هذه الحقائق الأساسية سبق أن أعلنها واضعوا النظريات البرجوازية واعترف بها البرجوازيون أنفسهم، فلما شحذ ماركس سلاح هذه النظريات وسدد شطر البرجوازيين انقلب النظريون البرجوازيون يهاجمون هذه النظريات التى وضعها سلفهم».

إن أهمية هذه الفقرة أنها تعبر عن فهم ماركسى كامل لفكرة صراع الطبقات وطبيعة الدور الذى لعبته البرجوازية.

لكن عصام لم يقتصر فهمه على وضع البرجوازية الأوروبية ودورها، فقد قدم دراسة تحليلية ممتازة توضح طبيعة البرجوازية المصرية وحقيقة دورها وموضعها من التاريخ. وكان ذلك فى رده على مقال يزعم أن مصر كبلد شرقى مستعمر لم تنشأ فيه طبقة

برجوازية بعد، فيرد عصام فى مقال بعنوان «فى طريق النهضة المصرية»[٢٨] قائلا: «تستعمل كلمة البرجوازية للدلالة على الطبقة الرأسمالية التى تستغل أموالها بصفة عامة فى التجارة أو الصناعة وأعمال المصارف المالية. فهل فى مصر طبقة كبيرة من الصناع والتجار؟ وهى تستخدم ثلاثة أرباع المليون من العمال الصناعيين.. أما التجار فدكاكينهم تملأ الشوارع وتلتهم من الموظفين وحدهم معظم مرتباتهم البالغة ١٣مليون جنيه، والموظفون برجوازية صغيرة».

وهو يتحدث عن دور البرجوازية المصرية عبر التاريخ الحديث فيقول:

«لقد ثارت البرجوازية أكثر من مرة، فثورة عرابى تمثل منازعة الطبقة الوسطى للأرستقراطية الشركسية وحركة مصطفى كامل تمثل يقظة الطبقة الوسطى فى المدن. وثورة ١٩١٩ كانت ثورة برجوازية..». «ولقد أسهم العمال والفلاحون فى ثورة ١٩١٩ لكن الطبقة البرجوازية خرجت ظافرة بما أرادت من الاستعماريين وضد الثوريين من العمال..». وهو لا يكتفى بالهجوم على الطغاة والمحتلين والبرجوازية لكنه يختار معسكره الذى ينضم إليه ويدافع عنه.

ويصدر عصام كتابه الشهير «التجديد الاجتماعى. أبحاث فى شئون العمال والفلاحين» وهو دفاع حار عن العمال والفلاحين، دفاع عن حقوقهم، وحث لهم على التمرد والثورة، وقد عرضه هذا الكتاب للمحاكمة أمام محكمة الجنايات فى قضية تعد من أشهر قضايا الرأى فى مصر، وتحركت للدفاع عنه كل القوى التى كانت تعارض دكتاتورية إسماعيل صدقى. وأخيرا أصدرت المحكمة حكمها ببراءته.

فماذا قال عصام فى كتابه «التجديد الاجتماعى».

«لو كان آباؤنا وأجدادنا ومئات الأجيال الماضية قد ظلوا يعملون فى بناء المدنية آلاف السنين ليتمتع بها بضع مئات من الأغنياء والوارثين، لئن كان ذلك، فسحقا لهذه المدنية وتعسا.. إننا نريد حضارة تضىء بنورها للشعب كله.. نريد مدنية يتمتع كل من يعمل فيها على قدر ما يعمل»[٢٩] ويمضى قائلا: «إن الفلاح إنسان فيجب أن يتمتع بحقوق الإنسان»، «إن حقوق الفلاح السياسية ليس لها كبير وزن، فهو فى أكثر الأحيان عاجز عن التمتع بها، وهو فى المعارك الانتخابية مضطر إلى أن يعطى صوته لسيده أو لمن يقع عليه اختيار هذا السيد»، «الفلاح يقدم لمصر طعامها.. فلا تقدم له إلا الذل والهوان.. إننى عندما خبرت

حالة الفلاح الحقيقى أدركت أن تجارة الرقيق لم تمح وأننا لا نعيش فى القرن العشرين».(٣٠)

وهو لا يكتفى بذلك بل يدعو إلى «تغيير النظام الاجتماعى إلى نظام يكفل للفلاح حياة إنسانية» وإذا كان هناك قوم يتهيبون البحث فى إصلاح النظم السارية ثم ينتحلون لتبرير استغلالهم سببا هو أدل على الوجل وخمود الفكر فيقولون ذلك هو النظام الطبيعى الذى أوجده الله وسار عليه الناس منذ القدم، لا يجدون وسيلة يتنصل بها البشر من تبعة جرائمهم إلا بقذفها فى وجه الآلة والطبيعة، فإننا لا نرتضى إلا أن تشعر الهيئة الاجتماعية بطغيانها وفظاعتها وإلا أن نهيئ لها السبل لتحسين نظمها وقواعدها».(٣١)

وكخطوة للتغيير، أسماها هو «خطوة إصلاحية بسيطة.. قليل من كثير اترك إصلاحه للزمن» يقدم عصام الدين برنامجا لتحسين حال الفلاح:

– ٨ ساعات عمل مقابل حد أدنى للأجر ٦ قروش فى اليوم تزيد من تلقاء نفسها قرشا ونصف كل عام حتى يصل الأجر اليومى إلى عشرين قرشا.. مع تمتع المرأة العاملة بنفس الأجر مقابل نفس العمل.

– إلغاء الضرائب عن الملاك الذين يملكون فدانا فأقل، وفى مقابل ذلك تفرض ضريبة على كبار الملاك وعلى كل من يزيد دخله عن حد معين.. وتزداد هذه الضريبة ارتفاعا كلما ازداد الدخل.. إن فى مصر عدداً كبيراً من كبار الملاك لا تنتفع البلاد منهم بشىء يذكر، ومن العدل أن يدفع هؤلاء ٤٠٪ من دخلهم السنوى وأن يؤخذ منهم – أى من تركاتهم – مثل هذه النسبة عند وفاتهم.

– عدم السماح للأجانب بامتلاك الأرض الزراعية.

– العمل على نشر الصناعات الريفية.

– العمل على تحديد النسل.

– اتباع سياسة جمركية لحماية الإنتاج الزراعى.

ومرة أخرى يؤكد عصام الدين أنها مجرد مطالب إصلاحية.. ولكنها مجرد بداية كى «نشعر الفلاح بأن حقوقه مهضومة وبأنه مظلوم بائس مهان ينقصه الكثير حتى يصير إنسانا».

ثم يقول: «اهدوا الفلاح إلى بداية الطريق فلا يلبث أن ينطلق فيه إلى آخره».

وترتفع حرارة النداء أكثر فأكثر: «مجرم فى حق شعبه وحق الإنسانية من يعوق هذا الشعب عن بلوغ أمنيته».

«مجرم من يحاول إشباع أنانيته وشهواته وجشعه على حساب هذا الشعب».

«إن أقدس واجباتكم أن تنيروا له طريق التقدم، أن تهيبوا بالفلاح أن ابرز إلى الأمام وخذ مكانك».

لكن كل هذا إلى أين؟

إن عصام يلخص الهدف فى سطر واحد: «الفلاح يزرع فيجب أن يحصد. الفلاح هو المنتج فيجب أن يكون هو المتمتع».[٣٢]

وفى سنة ١٩٤٠ قدمت الحكومة إلى مجلس النواب قانونا ينص على عدم السماح بالحجز على الضروريات اللازمة للفلاح الصغير ولمعيشته.

فثارت ثائرة النواب ونشرت «الأهرام» بعضا من آرائهم التى قيلت فى الجلسة ومنها: [٣٣]

* لبيب أبو قورة بك: هذا القانون ليس له معنى، وهو معطل للفلاح الصغير.
* محمود سليمان غنام: إن هذا المشروع فيه تعقيد لشئون الفلاحين.
* خليل أبو رحاب: هذا القانون يعلم الناس الباطل والتضليل.
* إسماعيل فهمى الشلقانى بك: لا يصح عرض هذا القانون هنا.
* أحمد عبد الغفار بك: أنا أعارض هذه القوانين التى تقدمها لنا الحكومة لأنها قائمة على مبادئ بلشفية.

ويشن عصام الدين هجومه على النواب جميعا وعلى مجلسهم وعلى النظام الذى وصل بهم إلى مقاعد البرلمان قائلا: «إذا أردنا تحليل هذه المشكلة فإننا نجد:

١ - أن النواب ليسوا سوى جماعة من أصحاب الأملاك أو ممن يطمعون فى أن يصبحوا كذلك ذات يوم.

٢ - أن الأغلبية الساحقة من الشعب المصرى، أى الفلاحين، ليس لهم من يمثلهم فى هذا المجلس.

٣ - أن رجال الأحزاب السياسية المختلفة إذا اختلفوا فى المسائل الثانوية وتنازعوا على الحكم وما يتبعه من محسوبية فإنهم صف واحد عندما يتعلق الأمر بطبقتهم، الأحزاب تتنازع وتتعارض حين يكون الوطن فى خطر، ولكنها تتساند وتتقابل عندما تكون الطبقة

معرضة للقيام بتضحية ضئيلة».

ويهاجم عصام الدين النواب هجوما شديدا ويصفهم «بالمهرجين» ويقول: «لعل السادة الأغنياء والنواب المحترمين يفهمون قبل فوات الوقت أن الترويج للمبادئ البلشفية وتحبيبها لقلوب الشعب لا يكون بالمطالبة بهذه الإصلاحات الطفيفة التى إذا نحن رحبنا بها فليس ذلك دليلا على أنها إصلاحات حقيقية بل على أنها دلالة على التفكير نحو الإصلاح ليس إلا، وأن ما يتركه هذا الترويج بإفهام البائسين الذين يحسون مسيس الحاجة إلى الإصلاح، أن الإصلاح قرين البلشفية وأن فرض ضريبة الايلولة على تركات الأغنياء بلشفية.. أن نشر التعليم الإلزامى بلشفية، وأن تعليم البنات بلشفية، وأن محاربة البذخ والتبذير بلشفية، وأن المطالبة بترقية أحوال العمال والفلاحين والجنود بلشفية.. وعلى ذلك فإن حضرات النواب المحترمين لا يخدمون أنفسهم ولا طبقتهم حين يكثرون من ترديد الاتهام بالبلشفية».

ويواصل عصام الدين هجومه على مجلس النواب فى مقال آخر بعنوان «نحو أمة عديمة الطبقات» قال: «إن الرأسماليين يعتقدون أن الديمقراطية هى نظام سيادة أصحاب رؤوس الأموال، وليس البرلمان إلا نقابة يبحثون فيها شئون طبقتهم، ونحن نرى بعضهم ينادى بتحديد عدد طلبة الجامعة الوحيدة وذلك على اعتبار أن التعليم ليس حقا للشعب وليس المراد به التثقيف، بل كأنما يراد به تخريج فئة من الخدامين: أطباء لمعالجة البكوات والباشوات، ومهندسين لتشييد قصورهم ورى تفاتيشهم، وقضاة للحكم بحبس من يسرقون زراعاتهم».(٣٤)

ويواصل عصام الدين تصديه للهجمات الرجعية التى نشطت فى ذلك الحين لتخمد أية محاولة للإصلاح ولتقاوم قانون التعليم الإلزامى. ويشير عصام الدين إلى مقال كتبه الأستاذ محمد زكى عبد القادر يقول فيه: «إن القوت مفضل على التعليم وإن قانون التعليم الإلزامى بحاجة لتعديل كبير، بل لعله فى حاجة لإلغاء ولا بد من بحث المسألة كلها بشىء من الجرأة والفهم الصحيح».

ويرد عصام متهما محمد زكى عبد القادر بأنه «بوق من أبواق الرجعية»: «ولسنا ندرى ما هى الحاجة إلى «الجرأة» هنا، فإن الدفاع عن وجهة النظر الرجعية ليس الآن ولم يكن فى أى عهد من عهودنا محتاجا إلى الجرأة.

إن الخبز والتعليم كليهما ضرورى ولا يسوغ للأستاذ أن يضع سؤاله فى هذه الصيغة المضللة فإن فى وسع الدولة أن تعطى كل طفل لقمة ليأكل وقلما ليكتب، ومن واجب الدولة أن تقدم الخبز والتعليم معا لهذا الشعب الجائع البطن والرأس». ويختتم عصام الدين مقالته بقوله: «ونحن نطمئن حضرته فسيجد الفلاحون والعمال والصعاليك دائما ما يقرأونه ونحن سنزودهم بما يقرأون».[٣٥]

ولا يكتفى عصام الدين بالهجوم على الأغنياء وتعقبهم فى سلسلة مقالاته وكتبه بل هو يستخدم أيضا سلاح الرواية فيقدم للأدب العربى واحدة من أمتع الروايات عن الريف المصرى «عاصفة فوق مصر» يسجل فيها سخطه على كبار الملاك وينذرهم بالثورة المقبلة إذ يقف عبد الخالق أفندى وهو شاب مثقف من أسرة متوسطة ليتحدث إلى الباشا الإقطاعى صائحا: «إنها ليست زوبعة على البلدة بل هى عاصفة فوق مصر، فوق مصر من أقصاها إلى أقصاها تجتث جذور الظلم وتقتلع أصول الفساد، وما لم تعد أنت وأمثالك إلى رشدكم قبل فوات الأوان فستدك صروحكم المبنية من القش على رمال غير ثابتة».[٣٥]

وهكذا يتخذ مطلبه بالتجديد الاجتماعى مسارا اشتراكيا واضحا.. لكنه لا يكتفى بالتلميح فهو يصدر سلسلة من الكتيبات يحدد فيها موقعه من الاشتراكية..

ما هى الاشتراكية..؟

هذا هو السؤال الذى أحس عصام الدين بواجب ملح فى الإجابة عنه، وفى نشر هذه الإجابة على أوسع نطاق حتى يعرف شعبه المعنى الحقيقى للاشتراكية والأهداف الحقيقية التى تسعى من أجلها.

وفى عام واحد (١٩٣٣) يصدر عصام الدين ثلاثة كتيبات «حركة العمال والاشتراكية الديمقراطية»، و«المسألة الاشتراكية» و«مبادئ الاشتراكية».

ومن هذه الكتيبات الثلاثة وبعض مقالاته الأخرى سنحاول أن نلقى بعض الضوء على فكره الاشتراكى والأسس التى أقامه عليها.

وكتيب «المسألة الاشتراكية» عبارة عن أسئلة وأجوبة..

«س: ما هى الاشتراكية..؟

ج: الاشتراكية هى اشتراك جماعة من الناس (كأهالى القطر المصرى مثلا) فى إنتاج البضائع التى يرونها لازمة لهم وذلك بدلا من قيام فرد أو شركة تجارية مفردة بالإنتاج، إذ

إن المنتج الفرد لن يراعى فى إنتاجه إلا مصلحته الشخصية، ولو تعارضت مع مصلحة المجتمع. وهو لا يتورع عن إحراق نصف محصوله كى يرفع ثمن النصف الآخر.. ولن يتأخر عن طرد نصف عماله من غير ضرورة ماسة إذا وجد فى ذلك مغنما ولو ضئيلا..

س: وكيف يحل الاشتراك فى الإنتاج محل الإنتاج الفردى؟

ج: يكون ذلك بإلغاء الملكية الفردية فى وسائل الإنتاج كالمصانع والمزارع واستبدالها بالملكية المشتركة.

س: وكيف يكون الحال فى التجارة..؟

ج: تكون جميع المتاجر ملكا للدولة أو المجالس البلدية أو النقابات التعاونية يعمل فيها موظفون فنيون. ووظيفة المتاجر الاشتراكية مقصورة على الوساطة بين الإنتاج والاستهلاك من دون أن تتطفل على الحياة الاقتصادية برفع الأسعار وإحداث الغلاء المصطنع.

س: ومن الذى يقوم بإدارة الإنتاج وتوزيع الأرباح..؟

ج: تقوم بذلك لجنة ينتخبها أهل البلد من بينهم، ويستبدل أفرادها كل عام مثلا حتى لا يتولد فيها حب السيطرة والاستبداد والمحسوبية، وتكون هذه اللجنة خاضعة لمراقبة الآهلين مراقبة صارمة.

أما الأرباح فتوزع على مجموع الأهالى (العاملين) بصفة أجور فإذا امتنع شخص عن العمل بغير سبب معقول فإنه لا يتقاضى أجراً، وبما أنه لم يرث عن أهله ضيعة ينفق من ريعها من غير أن يعمل فسيضطره الجوع إلى العودة إلى ميدان العمل ثانية، وفى ميدان العمل الاشتراكى متسع للجميع.

وليس من الضرورى أن يكون نصيب كل فرد من الربح مساويا لنصيب آخر بل يصح أن تتفاوت الأجور تفاوتا معتدلا، فيمنح المهندس المخترع من أسباب الراحة قدرا أكبر مما يمنح للعامل العادى.. وتستمر الحال على ذلك المنوال فترة طويلة يمكن اعتبارها دوراً انتقاليًا إلى الدور النهائى للاشتراكية وهو الدور الذى يزداد فيه الإنتاج (رغم قلة ساعات العمل) وتكثر الخيرات إلى حد أن يجد كل امرئ ما يرغبه من المنتجات..»[٣٦]

ويواصل عصام الدين الأسئلة محاولا فى بساطة ووضوح أن يجيب عن كثير من التساؤلات.. موقف الاشتراكية من قضية الحرية.. موقفها من الاحتلال.. إلخ، لكننا سوف نتوقف عند سؤال مهم، لأنه يحدد موقف عصام الدين من الاتجاهات الإصلاحية فى الدولية الثانية.

«س: ألا يمكن إيجاد حالة وسط بين الاشتراكية والفردية؟

ج: لقد فشلت جميع المحاولات التى أراد بها البعض تحقيق ذلك.. إذ يجب على من اقتنع بصحة مذهب الاشتراكية أن يجاوز التورط فى سياسة النفعية والحلول المتوسطة. أما تحسين أجور العمال وتخفيض ساعات عملهم فهو مسكن وقتى لا يحل الإشكال. كما أن تحسين أحوال العبيد لا يعتبر حلا لمشكلتهم وإنما كان الحل فى إلغاء الرق جملة».

وتحت عنوان «الاشتراكية من الوجهة العلمية»، يقول عصام الدين: «وألفت النظر إلى أن الغرض من الاشتراكية ليس رفع أجور العمال وتحسين أحوالهم تحسينا محدودا بل هو أن تحل الدولة محل طبقة مالكى الأراضى والمصانع وأن تمنع أصحاب رؤوس الأموال عن التحكم فى الفقراء واستخدامهم عمالا أجيرين لا يتمتعون بكل ما ينتجه عملهم من الثمار».(٣٧)

إنه موقف صارم ضد الاتجاهات الإصلاحية ورفض لها. وفى مقال اخر بعنوان «الاستيلاء على القوة السياسية، قيمة المجالس النيابية والوسائل السلمية فى نظر الاشتراكية».(٣٨)

يقدم عصام الدين دراسة ممتعة وعلى أسس ماركسية لفكرة استخدام الوسائل القانونية كسبيل للدعوة للاشتراكية ويردد فيها انتقادات ماركس لأفكار لاسال ثم آراء تفصيلية لإنجلز حول هذا الموضوع.

وثمة موضوع آخر بالغ الأهمية يناقشه عصام الدين فى كتاباته هو «العلاقة بين الاشتراكية والإسلام»، ويصدر هذا الفصل بعبارة للكواكبى تقول: «كذلك تركت الإسلامية معظم الأراضى الزراعية ملكا لعامة الأمة يستنبتها ويتمتع بخيراتها العاملون فقط».

ثم يمضى عصام قائلا: «إذا قارنا بين ما أورده الإسلام فى شئون المعاملات وما قررته الاشتراكية إزاءها وجدنا فيها أشياء متماثلة تماثلا كليا كتحريم الربا..»(٣٩)

ثم يقول: «أما المسألة الوحيدة التى يرى البعض فيها اختلافا بين الإسلام وبعض المذاهب الاشتراكية فهى مسألة الميراث، ويرى البعض أن إلغاء الوراثة الخاصة هو نوع من التعاون ليس فيه خروج على الدين، إذ إن نظام التوريث ليس إلزاميا، ولا سيما عندما تدعو الظروف الاقتصادية إلى تحويره».

لكن عصام الدين لا يكتفى بذلك بل هو يلجأ إلى الغمز والهجوم من طرف خفى قائلا:

«ويرى الآخرون أن الحكومة التى توافق على إلغاء الإرث الخاص تخرج على الإسلام كما تخرج عليه حكومتنا المصرية التى توافق على إلغائها الحدود الإسلامية وفى حبسها السارق بدلا من قطع يده وفى تنظيمها البغاء وتحليلها الربا».

وأخيراً يقول عصام الدين: «وعلى ذلك فليس هناك أى تنافر بين الاشتراكية والإسلام، وإذن فقد كذب الذين يستندون إلى الآية (ورفعن بعضكم فوق بعض درجات) لتثبيط همم الطبقة العاملة بحقوقها ولتبرير حالة الذين يرثون المال فيأخذون فى إنفاقه على العاهرات وبائعى الخمور متخذين من تركز الثروة فى أيديهم قوة ووسيلة لإتلاف أخلاق الوسط الذى يعيشون فيه».[٤٠]

كذلك كانت مجلة «روح العصر» منبرا اشتراكيا أسسه عصام الدين بالاشتراك مع د. عبد الفتاح القاضى وحسنى العرابى بهدف الدعوة للاشتراكية ونشر أفكارها.

وقد صدر من هذه المجلة ٢٤ عددا زخرت بمقالات عديدة عن الاشتراكية وأهدافها.

ضد الفاشية

ولقد كان عصام الدين بفضل ثقافته الألمانية وتتبعه المستمر للمنجزات الفكرية الألمانية ولأحداث الصراع السياسى والاجتماعى فى ألمانيا أول من تنبه من المثقفين المصريين إلى خطر الفاشية وإلى ضرورة دحرها.

ولم يقع عصام الدين فى المأزق الذى انساق إليه بعض الساسة المصريين، وخاصة من ممثلى البرجوازية الصغيرة والوسطى، محاولين الاستعانة بهتلر ضد الإنجليز. فقد حمل لواء الدعوة ضد الفاشية داعيا إلى تركيز كل الجهود للقضاء على الخطر الفاشى المحدق.

ومنذ البوادر الأولى للخطر الفاشى كان عصام الدين سباقا إلى التعريض به والهجوم عليه والتحذير منه.

ففى عام ١٩٣١ يضمن كتابه «التجديد الاجتماعى» فصلا بعنوان «دكتاتورية الفاشزم»[٤١] يقول فيه: «إن الفاشية ليست إلا رجعية ضد نمو المدنية فى مدى ألف عام وهى تنكر حقوق الإنسان وتعمل على خنق الحرية الشخصية وحرية الفكر».

لكنه لا يلبث أن يصدر كتابا بعنوان «الحقائق عن الفاشية»[٤٢] يعالج فيه فكرة الفاشية فى علاقاتها بالقضية الوطنية وبالدعاوى التى ترددت كثيرا حول الفاشية وعلاقاتها بالاشتراكية، ويعالج الموقف من الإنجليز فى ضوء قضية الصراع المشترك ضد العدو

المشترك.. وهو كتاب مهم يعبر عن سعة اطلاعه وعن وضوح الرؤية لديه وضوحا تاما.

«نحن نكافح الفاشية فى مصر ونؤيد كل ما من شأنه القضاء عليها. ونحن إذ نرجو دحر ألمانيا الفاشية لا نبغى بذلك كراهية الألمان بل كراهية الفاشية، فإذا برئ الألمان من هذا الداء مددنا إليهم يد الصداقة كما هو شأننا مع غيرهم من الشعوب». ثم: «لقد قام سماسرة المحور فى الشرق ببث دعاياتهم فى أقطاره قبل نشوب الحرب وبعدها، ناهجين نهج سادتهم فى برلين، أولئك الذين كانوا يبشرون بين كل طبقة وفئة بمبادئ ويمنونها بأمانى تناقض ما يذيعونه بين سواها. فهم يقولون للأغنياء إن الفاشية تحفظ لهم أملاكهم من خطر الشيوعية، ويقولون للفقراء إن الفاشية تلغى الرأسمالية وتمحو امتيازات الأغنياء وتسوى بين أبناء البلاد جميعا والواقع أنها لم تلغ النظام الرأسمالى بل ألغت ما كان باقيا فيه من محاسن..».

«إن اشتراكية هتلر ليست سوى صرخة الرأسماليين الألمان بطلب مضاعفة أرباحهم وثروتهم وزيادة استغلال عمال بلادهم وإلقاء نير استغلالهم على عاتق البلاد الأخرى».(٤٤)

ثم هو يتحدث عن طبيعة الصراع بين ألمانيا وإنجلترا فيقول: «قال لى أحدهم ذات مرة إذا قال لك هتلر إن إنجلترا على قلة سكانها تملك المستعمرات الشاسعة وألمانيا على كثرة سكانها لا تملك شيئا فماذا أنت قائل؟ فأجبته أقول له إنى أعتبر الاستعمار ضرب من السرقة فإذا دار بشأنه نزاع وجب أن تفصل فيه محكمة من اللصوص». لكنه مع ذلك يحدد موقفا صريحا ينادى فيه بتوجيه كل الجهد ضد الخطر الفاشى المحدق فيقول: «لقد أخذ دعاة المحورية يستغلون ما بيننا وبين إنجلترا من المشاكل لكى ننحاز إليهم، أما نحن فنرى أن نبحث لكل مشكلة محلية عن حل وقتى نتهادن عليه حتى ننتهى من مشكلة المشاكل.. إننا نشكو ما نراه فى نظامنا من عيوب. ولكن ذلك لا يدعونا إلى أن نستجير من الرمضاء بالنار.. وإنما نكافح الفاشية لأنها تريدنا أن نتقهقر ونحن مصرون على التقدم، وبالقضاء على الفاشية تنتهى البداية وتبدأ النهاية».

لكن عصام الدين لم يعف الإنجليز من مسئوليتهم صراحة بأنهم هم الذين شجعوا النازية ومهدوا الأرض أمامها. «فعندما حمل هتلر لواء الاستعمارية الألمانية وأخذ النازى بيدهم الحكم، ملأ الطرب جوانح تشمبرلين ودلادييه ومن لف لفهما، فقد كانوا يرون فى الهتلرية حاجزا منيعا دون البلشفية، وقد طرقت مسامعهم صيحات النازيين لانتزاع أوكرانيا من الاتحاد السوفيتى وقصرت أبصارهم عن رؤية الحرب النازية المقبلة على

بلادهم فهللوا لهتلر ومجدوه. ومن ذلك ما كتبه «جورج لويد» فى جريدة «التيمس» الصادرة فى ٢٢ سبتمبر ١٩٣٣ إذ يقول: «إذا أفلحت الدول فى خنق النازية فى ألمانيا فما الذى سيكون بعد، إنه لن تكون ثمة حكومة محافظة أو اشتراكية أو حكومة من الاحرار، بل حكومة شيوعية متطرفة، ولا يمكن أو يكون هذا هو الغرض الذى ترمى إليه هذه الدول».(٤٥)

وهكذا فإن عصام الدين قد حرص دوما على أن يوضح وبجلاء أن الفاشية ليست سوى أحد أشكال النظام الرأسمالى، وأن القضاء عليها هو فى الأساس إضعاف للنظام الرأسمالى ككل.

وهو يحمل اشتراكى الدولية الثانية مسئولية نهوض الفاشية ونجاحها.. فيقول: «يرجع نجاح الفاشية فى ألمانيا إلى السياسة التى انتهجها الاشتراكيون الديمقراطيون إذ إنهم: انضموا إلى المعسكر المعادى للثورة التى قام بها العمال والجنود والبحارة عقب هزيمة ألمانيا فى الحرب وفتكوا بزعمائهم وفى مقدمتهم كارل لبنخت وروزا لكسبرج. ثم أخذوا يمالئون البرجوازيين، ولا سيما بعد أن أخفقوا فى الحصول على كثرة مطلقة فى الجمعية الوطنية فأصبح وجودهم فى سدة الحكم منوطا بائتلافهم مع الحزبين الديمقراطى والوسط».(٤٦)

ثم يواصل عصام الدين فى كتابه «موسكو – برلين – لندن» رواية قصة وصول هتلر إلى الحكم وكيف كانت خيانة اشتراكية الدولية الثانية هى السبيل الذى مكنه من ذلك.

وفى هذا الكتاب يحدد عصام الدين موقفا صريحا من المدارس الاشتراكية ويرفض صراحة انتهازية الدولية الثانية، ويمجد دور حزب (البروليتاريا) الألمانية الذى وقف يقاوم تيار الفاشية بشجاعة منقطعة النظير..

من أجل سلام العالم

ومن خلال النضال ضد خطر الفاشية وضد تهديدها لأمن العالم بدأت تتولد فى مطلع الثلاثينيات الدعوة للعمل من أجل صيانة السلم ولمقاومة خطر الحرب، وكان طبيعيا أن يبرز عصام الدين فى هذا الميدان أيضا. مؤكدا: «إن الخطر الأساسى للفاشية هو إشعال الحرب العالمية وانتهاك حريات الشعوب واستقلالها». ولهذا فقد أدرك عصام الدين أن

معركته ضد الفاشية هى فى الأساس معركة ضد الحرب. وكما كان عصام رائدا للنضال ضد الفاشية فى مصر فقد كان أيضا رائدا للنضال من أجل السلام. وقد بدأ عصام الدين دعوته للسلام بداية مبكرة واكبت على الفور الحركة العالمية التى اتسعت فى مطلع الثلاثينيات.

وفور انعقاد مؤتمر أمستردام (٢٧ - ٢٩ أغسطس ١٩٣٢) سارع عصام الدين إلى ترجمة النداء الصادر عن المؤتمر ونشره تحت عنوان «نداء ضد الحرب الاستعمارية»[٤٧] وهكذا بدأ المثقفون المصريون فى الاطلاع لأول مرة على نداءات تدعو للسلام من خلال إدانة النظام الرأسمالى ومن خلال دعوة العمال والفلاحين إلى التضامن ضد الرأسماليين مشعلى الحروب، فالنداء يقول: «يعلن المؤتمر استنكاره للسياسة الرأسمالية التى تفصل البلدان عن بعضها البعض وتبث البغضاء فيما بينها. فى سبيل جر الربح لمصلحة أقلية لا تشبع، ثم تسوق كل حكومة إلى استلاب أقاليم وثروات وأهالى البلاد الأقل قوة..».

«إن المؤتمر يحذر أعداء الحرب من الحلول الوسط السياسية التى تقدم بها بعض زعماء تشكيلات العمال إزاء النظام السائد. فلقد كان موقف الدولية الاشتراكية سنة ١٩١٤ عملا من أعمال التقهقر فى حركة تحرير الإنسانية.. إننا نقسم أن نعمل بكل قوتنا للقضاء على الرأسمالية التى تضحى بالإنسانية على مذبحها، نقسم أن نعمل بكل قوانا وأن نكرس أنفسنا للقيام بواجبنا الأول وهو مقاومة التسليح والتجهيز للحرب، ومقاومة التهييجات القومية وأن نرفض الفاشزم.. وأن نعارض استغلال المستعمرات، وأن نؤيد نضال الأقليات القومية وجهاد الشعوب التى تنشد التحرر الوطنى والاجتماعى.

إن طبقة العمال هى التى تنوء بأثقال الحرب وبأحمال السلم المسلح والتجهيز للحرب وإنا لنقسم على مكافحة هذه الكارثة القادمة علينا».

ولست بحاجة إلى القول بأن نشر كلمات كهذه كان يحتاج إلى شجاعة كبيرة فى ذلك الحين. كما استطاع عصام الدين منذ البداية أن يفرق بوضوح بين نوعين مختلفين من الحرب هما الحرب الاستعمارية وحرب التحرير.

وتحت عنوان «الوطنية الحمقاء» يتهكم عصام على جريدة «الثغر» لسان حال «مصر الفتاة» لأنها أوردت قصة شاب يابانى أراد التطوع فى الحرب فرفض طلبه لأنه وحيد أمه فقتلت أمه نفسها حتى لا تحرم ابنها من الالتحاق بالجيش.. ومات الابن فى ميدان القتال.

فيقول تعليقا على هذه القصة: «أنا لست أرى فى عمل هذه الأم هى وابنها وطنية... بل حمقا وغباء.. فالمفهوم من القصة أن هذه الحرب التى مات فيها هذا اليابانى الأحمق هى حرب استعمارية.. فلسنا نعرف فى تاريخ اليابان الحديث أنها اشتبكت فى حرب دفاعية فإذا افترضنا أن الحرب التى ورد ذكرها هى حملة اليابان على الصين. كان ذلك الجندى قد مات فى حالة اعتداء على شعب مسكين سيئ الأحوال.. أجل يجب أن يحب الإنسان وطنه ولكنه لا يجب أن يكره أوطان الآخرين، وليس من الوطنية الحقة أن يموت الإنسان فى حرب لا تستفيد منها إلا طبقة مخصوصة من تجار الأسلحة وكبار الرأسماليين، وإنما الوطنية الحقة أن يخدم المرء كتلة الشعب».(٤٨)

وعندما كانت الحرب العالمية الثانية على الأبواب شن عصام الدين حملة صحفية حول «هل يجب أن تشترك مصر فى الحرب المقبلة..؟»(٤٩)

وفى الحلقة الأولى من سلسلة مقالاته حول هذا الموضوع تحدث طويلا عن فكرة الحرب الاستعمارية وأهدافها الحقيقية، وعن طبيعة الصراع بين الاحتكارات وعن موقف الشعوب من هذا الصراع. وأخيرا تساءل: «والآن ما هو المسلك الذى يجدر بمصر أن تسلكه عند نشوب الحرب العالمية المقبلة..؟ هل يجب أن تلزم الحياد؟ وهل هى تستطيع ذلك؟ أم يجب أن تشترك فى الحرب إلى جانب إنجلترا؟ وإلى أى مدى؟ وهل تفعل ذلك بشرط أم بدون شرط ولا قيد؟».

وفى المقال الثانى يقول: «إذا نشبت الحرب بين إنجلترا وإيطاليا، تعذر على الطائرات الإيطالية أن تصل إلى إنجلترا ولن تجد مجالا للعمل إلا البحر الأبيض المتوسط والبلدان الواقعة عليه وفى مقدمتها مصر.. وفى وسع بضع مئات من الطائرات القاذفات للقنابل أن تنسف مدينة كالقاهرة وتقتل من بها فى بضع غارات، وفى وسعها أن تدمر معظم المنشآت الحيوية للبلاد كخزان أسوان والقناطر الخيرية. وما الذى تستفيده مصر فى مقابل هذه الخسائر الجسيمة..؟ لا شىء. فإذا انتصرت إنجلترا فلن يتبدل موقفها إزاءنا ولن نشاركها فى اجتناء ثمار النصر، وإذا حاقت الهزيمة بإنجلترا سندفع معها ثمنها وهو ثمن فادح..».

وبعد ذلك يحدد عصام الدين موقفه: «إن شعبنا لا يجب أن يقاتل مع إنجلترا أقواما لا شأن له بهم، فعلى الحكومة المصرية أن لا تزج به في أتون الحرب، وعلى أفراده أن

يمتنعوا عن المقاتلة ومواجهة الموت فى سبيل دول أجنبية ومطامع استعمارية».[٥٠]

ولم يكتف عصام الدين بهذه الصيحة التى أقلقت الإنجليز كثيرا والتى كانت موجهة ضد مشاريعهم فى تعبئة مصر كى تحارب فى صفها، فقد واصل جهوده واشترك فى تنظيم «اتحاد أنصار السلام بالقاهرة» وفى الاجتماعات الجماهيرية التى نظمها هذا الاتحاد فى أكثر من مناسبة تحدث عصام منددا بمحاولات جر مصر إلى أتون الحرب الاستعمارية..

وفى اجتماع حاشد عقد بدار الاتحاد النسائى فى ١١ نوفمبر ١٩٣٧ بمناسبة ذكرى الهدنة تحدث عصام قائلا: «إننا نضرب عن الحرب شجاعة لا جبنا، وإنما الجبان هو الذى يساق إلى حرب لا غاية له من ورائها، هو الذى يرغم على خوض غمار مجزرة يقيمها الجزارون، الجبان هو الذى يتقدم إلى الحرب وهو كاره ولست أعرف إنسانا عاقلا يتقدم بسرور إلى حرب ضروس تطيح فيها رؤوس عشرات الملايين من أجل البت فى نزاع استعمارى، لا ينتفع بالظفر فيه إلا عشرات الألوف من أصحاب رؤوس الأموال الذين لا سند لهم ولا نهاية لجشعهم..».

«يجب أن نبعد الحرب عن بلادنا، إن الآخرين يحاربون من أجل مصالحهم الاستعمارية، أما نحن فليس لنا ولا نريد أن تكون لنا مصالح استعمارية، فإذا ما استفزونا إلى القتال باسم المدنية الغربية، مدنية النخاسين مستعبدة الشرق فليس لدينا إلا جواب واحد أننا لا نبيح أن تهرق قطرة دم مصرية واحدة. إن الحرب جريمة، لا نحب أن نلوث يدنا بالاشتراك فيها. فليحارب من يحب الحرب، أما نحن فلن نحارب».[٥١]

ورغم ذلك فإن عصام الدين لا يفقد حذره، ولا ينساق فى هذا الموقف إلا فى الحدود التى تتطلبها ظروف مجابهة المستعمرين وفضح الحرب الاستعمارية وصيانة مصالح الأمة من أن تسخر خدمة للأغراض الاستعمارية. فما أن يصبح الخطر الفاشى ماثلا قرب الحدود المصرية، وما إن تهدد الفاشية إنجازات الإنسانية والتقدم حتى يعدل عصام موقفه مناديا بتأجيل المشاكل الداخلية حتى يمكن توحيد كل الصفوف «لمكافحة الخطر الفاشى المحدق..».

ومرة أخرى يثبت عصام الدين يقظته وإحساسه المرهف بمصالح وطنه..

وتنتهى الحرب ولا ينتهى خطر تجددها فيواصل عصام الدين نضاله من أجل السلام

ويعود من جديد إلى الربط بين النظام الرأسمالى والحرب فيترجم كتاب «لماذا كانت الرأسمالية تعنى الحرب..؟». لكن البوليس يصادر الكتاب ويطلب إلى النيابة إصدار قرار بالمصادرة وترفض النيابة «إذ إن القانون المصرى لا يحظر شرح الأسباب المولدة للحرب ولا يحرم الدعوة إلى السلام».[٥٢]

كذلك يهتم عصام بدراسة الحرب العالمية الثانية وأسبابها ونتائجها والدور الذى لعبته القوى الاستعمارية فى إشعال نارها فيكون كتابه «موسكو - برلين - لندن» وثيقة اتهام للاستعماريين وصفحة دفاع حار عن الشعوب.

ليس لمصر وحدها..

كان عصام من أوائل المثقفين المصريين الذين أدركوا أن قضية شعب مصر لا تنفصل عن قضية الأمة العربية كلها. وهكذا حرص بدأب غريب على أن يقيم علاقات وثيقة مع كثير من القوى الوطنية والتقدمية فى لبنان وسوريا والعراق.

فنشر عديداً من المقالات فى مجلة «الحديث» اللبنانية التى كان يصدرها سامى الكيالى وهو يصفها بأنها مجلة تجديدية.

كذلك نشر مقالات فى «الإخاء الوطنى» العراقية، «والقبس» البيروتية، كما كانت كتبه تسهم فى نشر الوعى العلمى والاشتراكى فى عديد من البلاد العربية.

وتعلق «الإخاء الوطنى» العراقية على كتابه «النشوء والارتقاء» فتقول: «إن هذا الكتاب يشبع بحث النشوء والارتقاء من وجوهه العلمية التى لا تقبل الرد وتلجم ألسنة المكابرين. والعراق الذى لم تشع فيه بعد المطالعة باللغات الأجنبية بحاجة إلى مطالعة هذه البحوث باللغة العربية لتتكون فى الأذهان ثقافة صحيحة مستندة إلى الحقائق العلمية فى العلوم الطبيعية.. ونحن نقدر جهد المترجم ونستزيده من هذه الخدمات النافعة للمجتمع العربى الشرقى».[٥٣]

وتقدم «الإخاء الوطنى» أيضا كتب عصام عن الاشتراكية وتقول: «إن عصام الدين ناصف شاب مصرى أشرب النزعة الحرة والتفكير الجرىء وسلك فى خدمة قومه مسلكا قويا بنشر الأفكار الحديثة بين ظهرانيهم وبث الثقافة القومية التى تستند إلى المبادئ العلمية والدراسات الاجتماعية العميقة»[٥٤]، وثمة تعليقات عديدة أخرى فى الصحف اللبنانية والسورية لكن أهم ما يدل على عمق العلاقة بين عصام الدين والقوى التقدمية فى

العالم العربى هو تلك المساهمة الإيجابية التى أسهمت بها صحف سورية ولبنانية وعراقية فى الحملة الواسعة التى شنت دفاعا عن عصام الدين عندما قدم للمحاكمة فى ١٩٣١.

وعندما أصدرت المحكمة قرارها ببراءة عصام الدين كتبت صحيفة «ألف.. باء» تقول: «اشتغلت المحاكم والصحافة مدة يومين متواصلين فى مسألة اجتماعية خطيرة يتوقف عليها مدار حرية الفكر فى الكتابة والتأليف والدراسات العلمية، وهى قضية عصام الدين حفنى ناصف» ثم تحدثت الجريدة عن أدوار القضية بالتفصيل وعن الحكم بالبراءة قالت: صفق الناس كثيرا لهذا الحكم العادل لأنه وضع حدا لتأويلات النيابة وتمحكات الذين يرمون إلى تحطيم الأقلام والحجر على الأفكار الحرة..».(٥٥)

* * *

ولا بد أن نتحدث أيضا وبإيجاز عن مجابهة عصام الدين للسلطة وما ترتب على ذلك من ملاحقات وقضايا ومحاكمات أعوام ١٩١٩، ١٩٢١، ١٩٢٤، ١٩٣١، ١٩٣٣، ١٩٤٦.. فتلك مسألة تحتاج إلى تفصيلات مستفيضة لكننا نريد أن نشير هنا إلى أنه فى كل مرة من هذه المرات خرج عصام الدين منتصرا.

حكم عليه أحيانا وبرئ أحيانا أخرى.. لكنه فى كل مرة لقن قضاته درسا ووقف شامخا معتدا بآرائه مصمما على التمسك بها وعلى استمرار المناداة بما يعتقد أنه فى صالح جماهير الشعب.

كذلك نريد أن نشير إلى أن هذه القضايا وشجاعة عصام الدين خلالها كانت فرصة أتاحت لكثير من القوى الديمقراطية والتقدمية فى مصر إمكانية التحرك والنشر دفاعا عن عصام الدين والمطالبة بالإفراج عنه..

والحقيقة أن قضايا عصام الدين كانت تحاط دوما بهالة كبيرة من الضجة والتحرك فى أوساط الصحافة والرأى العام. وربما رجع ذلك إلى براعة عصام الدين فى الإثارة وتحريك الصحف للدفاع عنه، وربما تقديرا لشجاعته، أو تقديرا لآرائه، وربما أيضا تأثرا بماضى أسرته المجيد.

المهم أنه فى كل مرة جابه فيها عصام الدين السلطة من قفص الاتهام كانت تتصاعد ضجة كبيرة هى فى حد ذاتها خير ترويج لآرائه وخير تحبيذ للاشتراكية.

وعندما قبض على عصام الدين عام ١٩٣١ تجمعت حول القضية جبهة واسعة من كل

القوى المعادية لدكتاتورية صدقى وأصبحت قضية عصام الدين ليست مجرد قضية ترويج للاشتراكية وإنما قضية حرية الرأى والفكر فى مصر. بل وفى العالم العربى كله.

ولنتأمل بعض مقالات الدفاع عنه والمطالبة بالإفراج عنه لعلها توضح مدى اتساع الجبهة التى تجمعت أطرافها حوله.

فجريدة «السياسة» تنشر النص الكامل لمرافعة محمد على علوبة باشا دفاعا عنه[٥٦]، كذلك تنشر «الجهاد» النص الكامل لمرافعة إبراهيم الهلباوى.[٥٧]

والمرافعتان وثيقتان تاريخيتان مهمتان فى الدفاع عن حرية الرأى والفكر وحرية التعبير والاعتقاد.

وعندما يصدر الحكم بالبراءة تهلل له جميع الصحف المعارضة لصدقى.. وتنشر جريدتا «الجهاد» و«السياسة» النص الكامل لحيثيات الحكم..[٥٨]

وتنتهز المعارضة الفرصة لتشن حملتها دفاعا عن حرية الرأى فتقول جريدة «السياسة»: «الرأى لا تكون محاربته بالحبس أو بالسجن، وإنما يحارب برأى آخر يناقضه ويدحضه ويهزمه ومن كلمات أناتول فرانس المأثورة أن القانون الذى يضطهد حرية الرأى يكون هو المجرم لا صاحب الرأى».[٥٩]

وينشر سلامة موسى فى «البلاغ» مقالا جاء فيه: «فى هذا الوقت الذى تأخذ فيه الإدارة مكان القضاء وتحكم على المجلات العلمية بالتعطيل لأنها لا تنزل على هوى الوزارة يجب أن يفرح الأدباء للحكم الذى أصدرته محكمة جنايات الإسكندرية فى قضية الأستاذ عصام الدين ناصف. فإن هذا الحكم احتفظ للكتاب بحرية الرأى إلى حد ما، وأعاد لهم شيئا من الطمأنينة التى يحتاجون إليها فى هذه الأيام العصيبة.. والحكم هو على كل حال ربح لجميع المفكرين فى مصر..».[٦٠]

وتنشر «البلاغ» مقالا آخر تهاجم فيه النيابة لتسرعها، وتقول: «ونحن نسأل ذلك لا لندفع شرا عن الأستاذ عصام الدين فقد وقع به الشر وانتهى ولا سبيل لتعويضه وإنما نسأل لأننا نحن وغيرنا ممن يكتبون ويبدون الآراء فى هذا البلد مستهدفون لهذا الأذى القائم على الظلم فى استخدام السلطة والظلم فى التقدير».[٦١]

وتسهم «الأهرام» فى المعركة أيضا بمقال للآنسة «مى» جاء فيه: «إن الحكم بالبراءة شهادة ناصعة على مبلغ اتساع مدارك القضاء المصرى، كما هو شهادة للمحامين

المصريين بالكفاية وهو ضمين بالحرية فى مصر. يسرنا أن نشهد براءة من هو ابن حفنى ناصف وشقيق باحثة البادية. ولكن المعنى العام فى هذه القضية يفوق المعنى الخاص.. ومن دواعى الابتهاج أن نعلم براءة الأستاذ عصام ناصف فى نفس الوقت الذى تجد فيه حرية الفكر فى مصر من المحاماة المصرية ومن القضاء المصرى نصيرا ورشيدا».(٦٢)

وهكذا أصبح نضال عصام الدين رمزا تلتف حوله كل القوى الوطنية والديمقراطية فى مصر.

لكن ذلك كله لم يكن من وجهة عصام الدين سوى إعداد المسرح كى يتاح لمصر أن تشهد فصول الرواية الحقيقية.

لم يكن ذلك كله إلا استعدادا لعمل أكبر، وحلم أعظم.. ذلك الحلم الذى قضى عصام الدين ردحا طويلا من حياته يفكر ويدبر ويسعى بدأب لكى يصل إليه.

حزب للعمال والفلاحين

تلك هى القضية الأساسية..

لقد أدرك عصام الدين منذ البداية ضرورة تأسيس هذا الحزب كسبيل للنضال والجهاد من أجل تحقيق الحلم الاشتراكى فى مصر.

ولقد بذل محاولات عديدة اتسم بعضها بالتسرع والبعض الآخر بالذكاء. ورغم أن هذه المحاولات لم تنجح فى تحقيق حلم عصام الدين بشكل مباشر فإنها تستحق التأمل والدراسة، خاصة وأنها قد أصبحت بوتقة تولدت فى غمارها بعض مسارات الحركة الاشتراكية المصرية الحديثة.

ولنبدأ مع محاولاته الأولى لتأسيس حركة اشتراكية.. فى ١٩٢٧ عندما كون مع بعض أصدقائه ما سمى «اللجنة التحضيرية للحزب الاشتراكى المصرى» ولا تحمل صحف هذه الفترة أى أخبار عن نشاط هذه اللجنة. سوى برقية تقول: «اللجنة التحضيرية للحزب الاشتراكى المصرى تحتج بشدة على منع النائب الشيوعى البريطانى سكلاتفالا من دخول مصر، وتعلن أن اضطهاد الحرية الفكرية لا يمكن أن تدل شجاعة الحكام الذين يخافون من ذيوع الحقائق.

السكرتير عصام الدين ناصف». (٦٣)

وتتهكم «كوكب الشرق» على هذا الحزب الذى «لم يسمع به أحد والذى نبت نباتا

شيطانيا»[٦٤] ، ولا بد أن المحاولة لم تنجح، فقد كانت مصر لا تزال تعانى من آثار حملة إرهاب شديد تعرض له مؤسسوا الحزب الاشتراكى ١٩٢١، وكان معظم كوادر هذا الحزب إما فى السجن أو مطاردين.

لكن هذا الفشل لا يمنع عصام الدين من مواصلة المحاولة مستخدما أسلوبا جديدا..

كان تأسيس مجلة «روح العصر» هو فى حد ذاته محاولة لإيجاد منبر تقدمى تلتف حوله قوى عمالية واشتراكية يمكن من خلالها تأسيس الحزب. ولقد نجحت المجلة بالفعل فى أن تنشر مقالات اشتراكية وأن تجمع حولها عددا من النقابيين الذين كانوا يسهمون فى توزيعها وفى تحريرها، ولكن المجلة لم تستمر طويلا فقد تآمر عليها صدقى باشا حتى أغلقت.[٦٥]

ومرة أخرى يلجأ عصام الدين إلى أسلوب جديد..

لماذا لا يلجأ إلى الكوادر المتطرفة فى الحزب الوطنى، ألم يكن هو نفسه واحدا من هذه الكوادر ثم انحاز إلى الاشتراكية.

وهكذا يبدأ علاقة وثيقة مع لجنة الحزب الوطنى بالإسكندرية حيث كان يعمل مدرسا، ثم يدعم علاقته بالنقابة التابعة لها نقابة الصنائع اليدوية.

وعندما يجد عصام استجابة ما فإنه يسرع فيصدر كتابه «التجديد الاجتماعى» كمحاولة لوضع أساس فكرى للحزب الجديد.

ويبدو أن ثمة خلافا نشأ.. هل يسمى الحزب «الحزب الاشتراكى» أم «حزب العمال والفلاحين» كما كان يريد محمود محمد ناصر أحد قادة الحزب الوطنى بالإسكندرية ومراقب نقابة الصنائع اليدوية..

فيكتب عصام الدين مقالا توجد مسودته ضمن مضبوطات قضية ١٩٣١ بعنوان «حزب اشتراكى لا حزب عمال». وعلى أية حال فإننا نجد أن بيانا قد صدر فى ٤ يونيو ١٩٣٠ بعنوان «برنامج حزب العمال والفلاحين».

وقد كانت قضية كتاب «التجديد الاجتماعى» فى الأساس هى قضية تأسيس هذا الحزب، وكانت الوقائع التى دار حولها التحقيق تتعلق أساسا بمحاولات تأسيس الحزب..

فيدور التحقيق حول علاقة عصام ناصف بنقابة الصنائع اليدوية ولماذا قامت النقابة بتوزيع كتاب «التجديد الاجتماعى» وباعت منه نسخا كثيرة..

ويستدعى إلى التحقيق محمود ناصر الذى يعترف بمحاولة تأسيس «حزب العمال

والفلاحين» وبأنه قد طبع بيانا من ألف نسخة يدعو فيه إلى تأسيس هذا الحزب ووزع معظمها.

وإذا كان تقديم عصام الدين إلى المحاكمة والضجة التى صاحبت القضية والقبض على زملائه فى محاولة تأسيس الحزب قد أعاقت هذه المحاولة.. فإن عصام الدين لم يتراجع، بل صمم على المحاولة من جديد..

وفى ٣٠ أبريل ١٩٣٢ يصدر بيانا بمناسبة «عدد أول مايو».

موقعا باسم «الكتلة الاشتراكية» والبيان يحمل شعار «يا عمال العالم اتحدوا - كارل ماركس» ويبتدئ بداية ساخنة «لقد فشل النظام الرأسمالى، وها هى بشائر انهياره تبدو للأبصار..».

ويمضى البيان منددا بالأسلوب الرأسمالى فى الإنتاج مؤكدا أنه مصدر الأزمات والحروب لكنه لا يلبث أن يوجه نداءه إلى العمال: «يا عمال مصر.. لقد ظللتم أبد الدهر متفرقين لا يقيم لكم أحد وزنا، ولا يخطر ببال الحكومة أن تجيب مطلبا من مطالبكم، فلما أخذتم فى تكوين النقابات رغم كل معاكسة... فكر البعض فى استغلالكم لتعضيد سياسة يجدر أن يبتعد العمال عنها.. فدعوا هذا التواكل ولا تجعلوا أنفسكم مطية لغيركم».(٦٦)

إنه يدعو العمال إلى ضرورة التخلص من نفوذ الأحزاب والعناصر البرجوازية التى تسابقت فى محاولة فرض سيطرتها على الحركة النقابية.

ويبدو أن مساعيه قد نجحت بعض الشيء، وأنه قد استطاع أن يجمع عددا من العناصر ليبدأ من جديد.

لكن البوليس كان يتعقب كل حركاته، وفى ٢١ مايو ١٩٣٢ تصدر معظم الصحف بعناوين ضخمة «ضبط منشور اشتراكى..». ومن محاولة تتبع ما نشر فى صحف هذه الفترة يمكن أن نستخلص المعلومات الآتية:

- إن البوليس السياسى قد علم أن بعض الأفراد ألفوا لجنة تحضيرية مهمتها الدعوة إلى تأليف حزب جديد أطلقوا عليه اسم «الحزب الاشتراكى» وإنهم أعدوا منشورا لطبعه وتوزيعه على الجمهور يدعونه فيه إلى الانضمام إلى الحزب وتكوين جمعية عمومية تنتخب اللجنة التنفيذية التى تكون مهمتها انتخاب رئيس الحزب.

- إن البوليس علم أن اللجنة التحضيرية ستصدر منشورا يتضمن برنامج الحزب.

– قام البوليس بضبط المنشور فى مطبعة العامل المصرى وقد ضبط ٥٠٠٠ منشور معدة للتوزيع.

– وقد قبض على كل من عصام الدين ناصف ومحمود إبراهيم اللذين اعترفا بطلب طبع المنشور وأيدا كل ما به من مبادئ..

وتشير الصحف إلى أن المنشور موجه إلى «الأمة المصرية الكريمة» يحثها على العمل لتأسيس حزب اشتراكى. وإنه تضمن برنامج هذا الحزب، وأن البرنامج يتحدث عن الملكية العامة والملكية الفردية وساعات العمل وحقوق النساء وضرورة مساواتهن بالرجال. وضرورة تمثيل العمال فى البرلمانات.(٦٧)

لكن حرب المنشورات التى بدأها عصام الدين لم تتوقف، فما إن يحضر إلى مصر ملك إيطاليا لزيادة الملك فؤاد حتى يوزع منشورا يهاجم فيه الفاشية الإيطالية ويهاجم من سمحوا لملك إيطاليا بزيارة مصر.. ويطالب المنشور أيضا بإلغاء الامتيازات الأجنبية.. وقد وزع هذا المنشور على نطاق واسع فى القاهرة ودلت تحريات البوليس على أن سيارة قد استخدمت فى توزيعه..(٦٨)

والغريب فى الأمر أن عصام الدين قد قبض عليه فى هذه القضية لأن رجال البوليس رجحوا أنه هو كاتب المنشور نظرا للطريقة التى تعرض بها لنقد نظام الفاشست..(٦٩)

وعلى أى حال فإن «الأهرام» تشير إلى ضبط نسخ هذا المنشور فى منزله.(٧٠)

وفى أول مايو ١٩٣٣ يصدر نداء جديدا للعمال يهاجم فيه من جديد النظام الرأسمالى ويدعو إلى الوحدة والتضامن ضد الحرب والاستعمار والإرهاب.(٧١)

وعندما ينشب الخلاف بين حزب الوفد وعباس حليم حول زعامة الحركة النقابية ينشر عصام مقالا عنيفا يدعو فيه العمال إلى الانفضاض عن هذين المعسكرين المتصارعين وتكوين حزب خاص بهم، ويقول: «لقد أعلن أنصار الوفد عن انشقاق حزبهم على اتحاد العمال الذى يرأسه الشريف عباس حليم وأعربوا عن آراء مرتبكة تدل على منتهى الجهل المشرب بسوء النية. إذ يزعم الوفد أن الوطنية البرجوازية الفاشلة التى يرفع هو لواءها لا تسمح بإفساح المجال لحركة عمالية يقوم بها العمال لجمع وضم صفوفهم وتكوين جبهة موحدة للعمل على تحرير أنفسهم من تحكم أصحاب الأعمال. وترى جريدة العمال (جريدة عباس حليم) أن تقسم شئون الأمة إلى قسمين قسم يتولاه مصطفى النحاس وقسم يتولاه

عباس حليم، وينبغى على العمال فى رأيها أن يمتنعوا عن معالجة المسائل السياسية التى لا تختص بشئون العمال».

ويهاجم عصام كلا المعسكرين «فكل من هذين الزعيمين لا يقل عن الآخر بعدا عن محجة الصواب، والعمال يجب أن يعنوا ببحث جميع الشئون السياسية على أن ينظروا إليها من وجهة نظرهم الخاصة دون تبعية للأحزاب البرجوازية».[٧٢]

والحقيقة أن عصام لم يقصر اهتمامه على المطالبة العامة بمصالح الطبقة العاملة، ولا على تأسيس حزب لها، لكنه ركز فى كثير من الأحيان اهتمامه على الحركة النقابية محاولا أن يضىء أمامها سبل العمل المفيد، وقد دأب باستمرار على تحذيرها من سيطرة العناصر الضارة والبرجوازية.

وهو يحذر العمال من اللجوء إلى أساليب النضال الخاطئة. ويوجههم بأمثلة حية نحو الأسلوب الواجب الاتباع. «فعندما أحضرت مصانع التبغ فى مصر آلات لف السجائر واستغنت عن آلاف من عمالها الفنيين اجتمع العمال وطالبوا الحكومة بسن تشريع يجبر مصانع التبغ على لف اللفافات بالأيدى لا بالآلات. لقد سلك العمال فى تفكيرهم هذا أقصر طرق التفكير ولكن ليس أصوبها. وكان الصواب أن يتجهوا فى تفكيرهم نحو إصلاح النظام الاقتصادى لا نحو تحطيم الآلات والمطالبة بعدم استعمال الآلات. فالآلات الحديثة هى تراث الحضارة.. والواجب أن يؤدى تحسين الآلات.. إلى تقليل ساعات العمل اليومى أو إلى زيادة الاستهلاك لا إلى إلقاء العمال بين أنياب العطلة».[٧٣]

وعندما تعلن «المقطم» تخوفها من إدخال الآلات الحديثة إلى مصر مطالبا بمنع ذلك حتى لا يؤدى إلى البطالة يندد عصام بهذه الفكرة معلنا «إنه من مصلحة المستهلك المصرى والعامل المصرى أن تمتلئ البلاد بالمصانع الكبيرة. إن مكافحة البطالة عن طريق محاربة التقدم لا يؤدى إلا إلى نتائج معكوسة».[٧٤]

وهو يواصل تأكيده على أهمية تكوين النقابات وعلى أهمية تضامن العمال واتحادهم ليس هذا فحسب بل هو يفتح أمام العمال أبواب التضامن العمالى العالمى، «فكلما ازداد تجمع العمال تعمقت فيهم فكرة النقابية الحرة وعلموا أنهم لن يجنوا فوائد ثابتة وعظيمة على الأرض النقابية وفى الشئون الاقتصادية ما لم يتبعوا المنهج الذى يرسمه لهم اتحاد النقابات الدولى».[٧٥]

والحقيقة أن عصام لم يفرق كثيرا بين محاولاته لتأسيس حزب للعمال والفلاحين وبين عمله وسط النقابات. فقد سيطرت عليه تماما فكرة العمل العلنى والقانونى.. وفى حوارى معه أكد أنه رفض جميع المحاولات لتأسيس تنظيم سرى، على أساس أن النضال المستمر سوف يجبر الحكام يوما على الرضوخ لمنح العمال حقهم فى تكوين حزب خاص بهم، وأعتقد أن كثيرا من العوامل قد تدخلت لتدفع عصام إلى هذا الموقف، منها التجربة المريرة التى عانى منها كوادر الحزب الشيوعى المصرى عندما تحولوا إلى العمل السرى فى عام ١٩٢٤. ومنها ضعف خبرته التنظيمية فقد رأينا أنه تحول من العطف على الفكر الاشتراكى إلى محاولات العمل الاشتراكى نفسه دون أن يرتبط بأى من المجموعات الحزبية التى كانت موجودة إلى حد ما فى ذلك الحين. ومنها أيضا تمسكه الليبرالى بالحقوق القانونية والدستورية ومحاولة التقيد بالعمل فى حدودها.

وقد قاده هذا التمسك بالعلنية إلى كثير من المزالق. فبعد هذه المحاولات المتكررة والتى ضربت واحدة بعد الأخرى لم يجد مانعا من اللجوء إلى من يحمى محاولاته من بطش البوليس، فلجأ إلى عباس حليم.

وهنا يبدو واضحا تسلط «البرجوازى الصغير» على تصرفه هذا، لقد فقد الصبر والثقة فى جماهير العمال، فلماذا لا يلجأ إلى سند أرستقراطى يحمى محاولاته. خاصة وأن كثيرا من الجماهير العمالية قد التفت حول عباس حليم وقلدته لواء زعامتها.

ولقد لجأ عصام إلى عباس حليم على مضض، فهو لا يقبل زعامة أرستقراطى للحركة العمالية وهو لا يرضى عن الزعامات النقابية التى التفت حول عباس حليم.

عصام لا يخفى هذه «المرارة» بل هو يقتحم معسكر عباس حليم شاهرا سيفه معلنا الحرب على النقابيين النفعيين.

فيكتب فى صراحة: «كنت مضطرا للذهاب إلى النبيل عباس حليم، فقد كان جميع العمال تحت زعامته، وهو رجل مخلص حسن النية، ولكنه قليل الخبرة بهذه الشئون. وقد وجدته ترك الأمر فى أيدى عدد من العمال معظمهم غير مخلص للحركة، وإنما كان انضمامهم لاستغلالها والاستفادة منها أدبيا وماديا.. وكان البعض منهم يختلس ما تصل إليه يده من أموال العمال المساكين، ثم هناك ما هو أدهى وأمر، كان الكثيرون منهم يتصلون بإدارة الأمن العام وفى المجمل كانوا جهلة أدعياء».

وشعر هؤلاء النقابيون بخطر وجود عصام وسط صفوفهم فأخذوا يقاومونه بسلاح قديم «لا نريد أفندية بيننا، إن الأفندية لا يحسون آلام العمال..».

ورد عليهم عصام ردا قاسيا قائلا: إنهم «يعيشون فى ظلال الأغنياء ويتمتعون بكرم الأغنياء ولا يمكن مقارنتهم بالعمال».

ومع ذلك يواصل عصام محاولاته مع عباس حليم.. بل لقد حاول أن يستفيد من اهتمام النبيل بتأسيس اتحاد العمال لإقناعه بتأسيس «حزب العمال».

ورفع عصام شعار «حزب عمال لا اتحاد نقابات فقط». وتقول جريدة «شبرا»: «اقترح الأستاذ عصام الدين على النبيل عباس حليم أن يؤسس حزبا للعمال إلى جانب اتحاد العمال لأن للحزب وظيفة غير وظيفة النقابات واقتنع الشريف عباس حليم بصواب الفكرة ودعا الأستاذ عصام إلى وضع مبادئ الحزب»[٧٦]

هنا تثور ضجة شديدة، فالمحاولة ليست مجرد محاولة متواضعة كتلك المحاولات التى دأب عصام بصبر على القيام بها طوال السنوات الماضية لكنها محاولة يسندها عباس حليم بأمواله وبنفوذه الضخم فى الطبقة العاملة وباتحاد عماله الذى يضم غالبية النقابات.

ويشعر الوفد بالخطر على نفوذه وسط العمال فقد رضى على مضض باتحاد للعمال يرأسه عباس حليم مصمما باستمرار على أن هذا الاتحاد لا يجب له أن يشغل نفسه بالأعمال السياسية، أما تكوين حزب عمالى فهذا شىء آخر، خصوصا إذا أعد برنامجه ولعب دورا أساسيا فى تكوينه عصام الدين ناصف.

وتهاجم صحف الوفد هذا الاتحاد.. بل ويهاجمه النحاس شخصيا فى عدد من خطبه معلنا أنها محاولة للدس بين الوفد والعمال، ثم عاد النحاس لينشر حديثا فى الصحف ألح فيه إلى أن الدستور يحرم على الأمراء الاشتغال بالسياسة..

ويبدو أن هذه الهجمات قد دفعت عباس حليم إلى التردد فى تأسيس الحزب. ونشرت «الأهرام» خبرا لمراسلها فى لندن (حيث سافر عباس حليم) يقول: «إن النبيل سيكتفى على الأرجح بتكوين اتحاد نقابات».[٧٧]

لكن عصام لا يتراجع بل هو يشن هجوما مركزا على الوفد والنحاس، وهو لا يكتفى بهذا الهجوم فهو إذ يعلن عدم تصديقه للتصريح المنسوب لعباس حليم يوجه إليه التحذير صريحا. «فإذا فرضنا – وهذا ما نكتبه على سبيل الجدل ولا نعتقده قط – أن النبيل

عباس حليم رأى أن يتخلى عن الحركة وأن يكتفى بإعادة اتحاد النقابات، فهل معنى هذا أن العمال يمتنعون عن إنشاء حزب العمال؟ كلا.. ثم ألف كلا، فالعمال سينشئون حزب العمال لا لأن الزعيم عباس حليم يرى ذلك فقط بل لأنهم يرون ذلك أيضا».

ويواصل عصام تأكيده «نحن الآن نعلن أننا مصرون على وجوب إنشاء حزب العمال فى أقرب فرصة، وأننا ماضون فى الدعاية لتكوين الحزب، وأننا لن نتراجع عن عملنا هذا مهما غضب أعداء الحركة ومهما تراجع أصحاب القلوب الخائرة ولن تمضى بضعة أسابيع حتى نزف إلى العالم بشرى تكوين حزب العمال المصرى».(٧٨)

ويواصل عصام تصديه للهجمات التى شنت من كل مكان على فكرة تأسيس الحزب فيرد ردا عنيفا على بنت الشاطئ «التى نشرت مقالا فى الأهرام تتهم فيه الحركة بأنها مستوحاة من الخارج وتدعو متزعمى حركة العمال أن يأمنوا من التطبيق الحرفى لنظم بلاد ليس لنا مثل ظروفها».

كذلك تهاجم بنت الشاطئ المطالبة بزيادة الأجور «لأنها تعوق قدرة الصناعة المصرية على منافسة البضائع الأجنبية ولأنها ترفع الأسعار أمام المستهلك المصرى وهو الفلاح غالبا».(٧٩)

وتحت عنوان «عدو جديد للعمال والفلاحين الآنسة بنت الشاطئ» يقول عصام: «قرأت الكثير من مقالات هذه الآنسة ولا أذكر أنى وجدت بينها مقالة واحدة خالية من جملة موجهة ضد الفلاحين والعمال، وقد كنت فيما مضى أسند ذلك إلى جهلها بالمسائل العمالية وإلى رغبتها فى إرضاء الجريدة التى تدفع لها أجر مقالاتها..».(٨٠)

ومرة أخرى يؤكد عصام أن حزب العمال سيقوم رغم العقبات فيكتب مقالات بعنوان «حزب العمال قائم لا محالة».

وهو مقال مهم يحدد فيه عصام دور الحزب وأهدافه فيقول: «وليس الغرض من تأسيس الحزب هو مجرد مساعدة العمال والفلاحين فى الحصول على بعض المزايا، بل إن غرضه الأساسى يتعدى ذلك كثيرا فهو يرمى إلى اشتراك العمال فى إدارة دفة سياسة الدولة كلها، وسيعمل الحزب - بالطرق المشروعة - للاستيلاء على السلطة السياسية ويساعد مرشحيه من العمال والمثقفين مساعدة جدية للنجاح فى انتخابات البرلمان والمجالس البلدية وسيعمل على جعل أبناء الطبقة العاملة أكثر صلاحية لتولى زعامة العمال وتمثيلهم فى المجالس النيابية وفى مجلس الوزراء».(٨١)

وهو يكتب مقالا آخر بعنوان «حزب العمال يقوم على أنقاض الأحزاب الأخرى» يقول فيه: «لقد بلغ العمال المصريين رشدهم السياسى فأصبح من المحال أن يمنحوا ثقتهم لأى حزب من الأحزاب القائمة والتى لا عمل لها إلا التهريج».(٨٢)

لكن عصام لا يكتفى بكل هذه التأكيدات على ضرورة قيام الحزب، ولعله خشى من تردد عباس حليم فقرر أن يضعه أمام الأمر الواقع فسارع بنشر برنامج الحزب (قبل أن يعود عباس حليم من لندن) مشفوعا بمئات التوقيعات من القادة النقابيين والعماليين والبرنامج يستحق وقفة نتأمله فيها، فهو من الناحية السياسية يقدم مطالب حاسمة تستهدف تصفية النفوذ الاستعمارى.

«استقلال مصر والسودان استقلالا تاما وإزالة ما يمس الاستقلال بحيث لا يكون لأجنبى سلطة شرعية أو فعلية أو امتياز يمنح له حق التدخل فى شئون البلاد على أية صورة من الصور».

ويحرم البرنامج على الحكومة «أن تتنازل أو تسمح باحتلال جزء من أراضى مصر أو جوها أو بحارها».

ويطالب «بإلغاء الامتيازات الأجنبية إلغاء تاما بلا قيد ولا شرط».

كذلك يطالب البرنامج بدعم الحريات العامة و«المحافظة على الدستور مع زيادة النصوص التى تحمى حريات الأمة فيه وحقوقها إزاء الحكومة».

وينص كذلك على «نشر الدعوة للسلام والتحذير من الحرب الاستعمارية وبث روح الديمقراطية وفكرة المساواة بين الشعب وإظهار فساد المبادئ الدكتاتورية».

وثمة فقرة أخرى لافتة للنظر هى «توثيق صلات مصر بالبلاد العربية والإسلامية».

أما المبادئ الاجتماعية فهى تتناول موضوعات كفالة حرية الاجتماع والخطابة وإلغاء القوانين التعسفية وتعميم التعليم وجعله مجانيا فى المرحلة الابتدائية وعدم السماح للإرساليات الأجنبية بمزاولة التبشير، رفع مستوى المرأة، إلغاء البدل العسكرى وترقية الطبقة العاملة ورفع مستوى معيشتها مع تقليل الفوارق بين الطبقات الاجتماعية وجعل ما يتبقى من هذه الفوارق قائما على أساس الاجتهاد ونفع الجماعة».

كذلك ينص البرنامج على مطالب اقتصادية من بينها: «تحريم ملكية الأجانب للأراضى الزراعية، إزالة العراقيل المقامة فى وجه التجارة المصرية مع روسيا واليابان ومعاملة

الدول المختلفة على قدم المساواة، إصلاح شروط الإيجار الزراعى بقوانين مفصلة تحمى الفلاحين من الغبن، فرض ضرائب متدرجة على الميراث مع إعفاء الطبقات الفقيرة من الضرائب المباشرة».

ويتضح أن عصام الدين قد حرص على ألا يورد فى البرنامج أى مطالب اشتراكية فليس من المعقول أن يقبل عباس حليم مثل هذه المطالب.

وهكذا فقد اقتصر البرنامج على مطالبات وطنية وديمقراطية وإصلاحات اجتماعية.. لكن الأمر لم يقتصر عند هذا الحد. فقد عاد عباس حليم ويبدو أن التشدد الذى ساد المطالب الوطنية فى البرنامج لم يعجبه، بل إن الملك قد مارس ضغطا شخصيا على عباس حليم كى يخفف من حدة هذه المطالبات. وأخيرا اتفق على شطبها جميعا..

وتنشر جريدة «شبرا» بيانا يقول:

«إن عدداً كبيرا من العمال البارزين فى صفوف الحركة العمالية قد اجتمعوا مع بعض المثقفين، المعروفين بثقافتهم العمالية ودرسوا مشروع إعلان الحزب وقرروا..

١- إنشاء حزب العمال المصرى.

٢ - اعتماد المبادئ الاقتصادية والاجتماعية التى وضعها الأستاذ عصام الدين.

٣ - الاستغناء عن برنامج سياسى للحزب وذلك نزولا على نصيحة حضرة صاحب الجلالة الملك للعمال بعدم الاشتغال بالسياسة».

وبما أن الحزب هو مؤسسة غير سياسية فإنه لن يحارب حزبا أو يناصر حزبا من الأحزاب السياسية، بل يسره أن يتعاون مع كل فرد يعطف على مبادئه ويناصره ولو كان هذا الفرد منتميا إلى حزب من الأحزاب.

وهكذا فإن تدخل الملك كان يستهدف أكثر من مجرد استبعاد المطالب الوطنية، بل إنه استهدف أن ينفى عن الحزب حق العمل السياسى.. وكانت هزيمة قاسية لأفكار عصام. لعلها لقنته درسا بعدم جدوى الاستعانة بالبرجوازية لتأسيس حزب للعمال.

فعلا صوته فى مقال غاضب بعنوان «عمال قبل كل شىء.. حذار من تضليل البرجوازية»، يقول فيه: «ليس هناك أشد ضلالا ممن يزعم أن هناك نزاعا بين الوطنية المصرية والعاملية المصرية. أما أمهر أحزاب البرجوازية فى التهويش والتضليل، فإنها تعطى للعامل خنجرا مسموما ليطعن به طبقته وتدعوه باسم الدين أو الوطن أن ينتحر

فيفعل. ويقولون ابق مكانك لا تتقدم إلى الأمام حتى ننتهى نحن من إجلاء المحتلين، فيجيب سمعا وطاعة سأظل قابعا فى الأوحال القذرة إلى أن يصدر أمركم بالتحرك فأتحرك فى الطريق التى سارت فيها أحزاب العمال والاشتراكية فى سائر بلاد العالم».

ويواصل عصام الدين صيحته:. «يجب على العمال أن يرفضوا تلبية دعوة الأحزاب البرجوازية وعليهم أن يردوها قائلين: إننا نسعى لتحسين حالة أغلبية الأمة من عمال المدن والأرياف وهذا أمر لا يعوق الحركة الاستقلالية. بل هو حرى أن يقدمها ويقويها فإذا زعمت هذه الهيئات أن حركة العمال تعرقل جهادكم فالأمر سهل فليتخلوا للعمال عن الجهاد لتحرير الوطن. أن العمال يستطيعون النهوض بالحركتين معا: الاستقلالية والعمالية ولقد أثبتت الحوادث فى الصين وغيرها أن أحزاب العمال هى التى تستمر إلى النهاية فى الجهاد ضد الاحتلال الأجنبى على نقيض الأحزاب البرجوازية فهى مرتشية تساوم العدو على حقوق بلادها وتضحى بالمصلحة العامة لحساب المصلحة الحزبية والشخصية».[٨٣]

وهكذا يدرك عصام الدين من خلال التجربة والخطأ. ومن خلال الممارسة العملية أن السبيل لتأسيس حزب للعمال هو فضح البرجوازية ومجابهتها.

ويدرك أيضا أن الأسلوب القانونى ليس هو السبيل الوحيد أمام العمل الاشتراكى.

ومن ثم تبدأ محاولته لتأسيس تنظيم سرى.

والحقيقة أن هذه الخطوة لم تكن نتيجة نضج شخصى، بل هى ثمرة تطور شامل وصلت إليه حركة اليسار المصرى على مشارف الأربعينيات.

فلقد استطاع اليسار المصرى أن يلعق جراحه وأن يبدأ من جديد، وكانت حركة شاملة وواسعة.

لكن عصام الدين لم يواكبها. فمن جديد يبرز البرجوازى الصغير من ثياب المكافح الصلب، يبرز ليردد كل أمجاده (وهى حقيقية) ويردد كل ما قدم من نضال وتراث وفكر وتضحيات (وهى حقيقية أيضا) لكنه يرفض الآخرين.. فالشباب الجدد يندفعون بحركتهم دون استئذان من القدامى ودون خضوع لقيادتهم ويكتب عصام فى مجلة «التطور» قائلا: «لقد أخذت على عاتقى منذ بضعة عشر عاما أن أنشر التعاليم الاشتراكية وأدعو لها. وكانت كلمة الاشتراكية فى ذلك الحين تثير الدهشة والاستخفاف، وقد بلغت مصر فى النهاية بعض ما رجونا لها فكثرت فيها الدعوات إلى الإصلاح الاجتماعى، وظهر الاتجاه

الاشتراكى فى أبحاث الباحثين ودعوات المصلحين ومع أن هذه الدعوات ليست فى الصميم، ومع أن معظمها ليس جديا، ومع أن الكثير منها لا يعدو الندب والعويل.. فهى على الأقل قد نجحت إلى حد أن الكثيرين قد أصبحوا يتطفلون على المبادئ التى رفعنا علمها فى مصر وينتحلون مظاهر يقلدون بها المظهر الذى عرفنا به».[٨٤]

وهكذا فإن الفارس الشجاع الذى وهب حياته كلها للمعركة، يفتح عينيه ذات يوم ليجد موكبا كبيرا من شبان صغار، هم بالتأكيد ثمرة المناخ الذى أسهم فى تكوينه، لكن الموكب يمتد ولا يكون للفارس فيه مكان الصدارة.. فيؤدى به ذلك إلى الابتعاد.

لكنه لا يبتعد كثيرا عن الموكب فيظل يتابعه ويظل يلعب دوره كمثقف اشتراكى وثورى وتتوالى كتبه ومقالاته دفاعا عن الاشتراكية.

وفى آخر أيام حياته كان فخورا جدا بكتابه «سيرة لينين» وكان يستعد لإصدار كتب أخرى.. ولكن.. كان لا بد للرحلة أن تنتهى..